الشعبوية والخطاب البديل

تحولات المنطقة العربية

هذا الكتاب تم بالتعاون بين منتدى البدائل العربي للدراسات ومؤسسة المجتمع المفتوح.

الشعبوية والخطاب البديل
تحولات المنطقة العربية
نادين عبد الله ـ عبد الله العياش - أحمد عبد ربه - محمد العجاتي - زينب سرور
تقديم: جميل مطر
تحرير: محمد العجاتي

تصميم الغلاف/ حسن جمال
تدقيق لغوي/ أحمد الشبيني
الإخراج الداخلي/ حسن جمال

الطبعة الأولى، القاهرة 2020
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 2020/747
الترقيم الدولي/ تدمك: 978-977-6648-64-7
1 - العالم العربي- الأحوال السياسية.
2 - العالم العربي- الأحوال الاجتماعية.
أ- عبدالله، نادين (مؤلف مشارك)
ب- مطر، جميل (مقدم).
ج- العجاتي، محمد (محرر) 320,956

جميع الحقوق محفوظة للناشر
دار المرايا للانتاج الثقافي
تليفون: 023961548-2+ / موبايل: 01030319318-2+
البريد الالكتروني: elmaraya@elmaraya.net
العنوان: 23 ش عبد الخالق ثروت، الطابق الثاني، شقة 17، القاهرة، ج.م.ع

الآراء الواردة بالكتاب تعبر فقط عن رأي المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار المرايا للإنتاج الثقافي.

الشعبوية والخطاب البديل

تحولات المنطقة العربية

نادين عبد الله ـ عبد الله العياش - أحمد عبد ربه -

محمد العجاتي - زينب سرور

تقديم: جميل مطر

تحرير: محمد العجاتي

EL MARAYA
for Cultural Production
المرايا
للإنتاج الثقافي

مقدمة:

جميل مطر[1]

النظام الإقليمي العربي وقضاياه الأساسية رغم كثافة الدراسات التي ناقشتها على امتداد العقود الأربعة الماضية ما يزال في حاجة إلى مناقشات أعمق وأشمل. الاجتهادات لا يجوز أن تتوقف بحجة أن التغيرات الاجتماعية والسياسية والخرائط الإستراتيجية تجاوزت صفة التغيير إلى صفات التحول، بعضها بالفعل جذري وأكثرها شامل ومتشعب متعدد الأوجه والأبعاد، فلعل هذه التحولات نفسها تكون دافعًا إلى إعادة النظر في مفاهيم هيمنت طويلًا في الساحات الأكاديمية حتى بعد أن فقدت جدواها ومعانيها، لعلها أيضًا تثير في عقولنا أسئلة لم تطرح من قبل.

ثم إننا عشنا في ظل اقتناع له ما يبرره، اقتناع بأن الإقليم بلونيه العربي والشرق أوسطي يمارس حياته في ظل حالة شبه

1 - مدير المعهد العربي لدراسات التنمية والمستقبل في مصر، مفكر عربي معروف، عضو مجلس إدارة «مركز دراسات الوحدة العربية»، وكاتب مهتم بقضايا التحول الديمقراطي في الدول العربية. بدأ حياته العملية ملحقًا دبلوماسيًا لمصر في عدة دول، وشغل منصب رئيس وحدة العلاقات الدولية بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام.

دائمة من التوتر والسخونة. لذلك فإننا عندما دخلنا مرحلة التحولات الواسعة لم يخطر على بال باحثينا أن الإقليم استبدل دون أن ندري نمط معيشة في حال درجة معقولة من التوتر والسخونة ليعيش فوق صفيح ساخن، مستعيراً تعبيراً سينمائيًّا شائعًا. باحثونا اكتسبوا خبرة جيدة في توصيف الحال في لحظة تاريخية معينة وخبرة لا بأس بها في تصوير مستقبلات بديلة تنشأ وتستمر في ظل الحالة شبه الدائمة من التوتر والسخونة، ولكننا لم نكتسب خبرة مناسبة في التوصيف أو في استقراء مستقبلات وبدائل أوضاع الأمن والاستقرار في منطقة تعيش وتمارس نزاعاتها وعلاقاتها الطبقية والدولية وهي تغلي فوق صفيح ساخن.

تكونت اللحظة الراهنة في تطور الإقليم العربي ـ الشرق أوسطي نتيجة تداخل تطورات بالغة الأهمية، بل لا أخجل أو أتردد في نعتها بالثورية. أختار من هذه التطورات ما أعتقد أنها صاحبة فضل كبير على النظام الدولي بمعناه الشامل والنظام الإقليمي بمعانيه المتغيرة وعلى البنى الداخلية والعلاقات بين الدول. أختار أولًا مرحلة السبعينيات والثمانينيات، وتحديدًا أختار البذور التي غرستها العولمة وهي في ذروتها في المجتمعات العربية والشرق أوسطية. هناك في تلك المرحلة وفي مشتقاتها خلال السنين اللاحقة نمت بذرة الهوية الأولية بأسرع مما نمت بذور الهويات الأحدث،

مثـل: القوميـة والوطنيـة، بـل لعلهـا كـما اتضـح لنـا فيـما بعـد نمـت عـلى حسـابها.

أختـار ثانيًـا ثـورات الربيـع العـربي. أعـترف أننـا لم نتفـق بعـد عـلى معنـى وجوهـر هـذه الظاهـرة. ثـورات تنتقـل مـن بلـد إلى بلـد. تتوقـف قليـلًا لتهـدأ ثـم تشـتعل مـرة أخـرى، أو تتغـير مواصفاتهـا ولكـن تبقـى مسـتمرة. كانـت رد الفعـل الإقليمـي المناسـب للعولمـة. العولمـة لعبـت أدوارًا مهمـة، ليـس فقـط في إثـارة الوعـي بالهويـات الأوليـة في أقاليـم عديـدة مثلـما حـدث في يوغوسـلافيا وشرق أوروبـا وأمريـكا اللاتينيـة، ولكـن خلفـت أقـوى التأثـير في الـشرق الأوسـط. كانـت العولمـة وراء تمكـين الصـين مـن تحقيـق معجـزة الانتقـال مـن دولـة ناميـة قريبـة جـدًّا مـن التخلـف إلى مصـاف الـدول العظمـى في سـنوات معـدودة. هـذا الانتقـال أضعـه اختيـارًا رابعًا من بـين اختيارات أساسـية تقـوم عليهـا دراسـة بدائـل مسـتقبلات النظـام العـربي والنظـام الـشرق الأوسـطي. الاختيـار الخامـس وهـو أيضًـا مـن ثمـرات مرحلـة العولمـة يجـب أن يناقشـه الباحثـون تحـت عنـوان الـذكاء الاصطناعـي كمكـون مـن مكونـات منظومـة العلاقـات الاقليميـة.

هـذه العنـاصر هـي الأسـاس الـذي سـوف ينبنـي فوقـه النظـام الإقليمـي الجديـد. أتصـور أن قيمـة أي بحـث جديـد في موضـوع النظام الإقليمـي الجديـد، أو الاسـتمرار لفـترة بـدون نظـام، سـوف تكـون في

خلـق أفـكار حـول مرحلـة نشـهد فيهـا عالمًـا يتشـكل في ظـل أسـاليب وقواعـد مبتكـرة، وبعضهـا قـد يتجـاوز قـدرات العقـل البـشري.

1 - صعود نجم اليمين في المنطقة العربية وخفوت حق العيش الكريم

د. نادين عبد الله[2]

مدرس علم اجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

2 - مدرس زائر بقسم علم الاجتماع والإنسان والمصريات بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وباحث غير متفرغ بمنتدى البدائل العربي للدراسات ببيروت، وكاتب أسبوعي في صحيفة المصري اليوم المصرية. في 2014 حصلت على الدكتوراه في العلوم السياسية من معهد العلوم السياسية بجامعة جرونوبل بفرنسا، وفي 2006 على شهادة الماجستير في العلاقات الدولية من معهد العلوم السياسية بباريس. وتشمل اهتماماتها البحثية الحركات الاجتماعية والعمالية والشبابية، العلاقات الأورومتوسطية، وإشكاليات الانتقال الديمقراطي والعلاقة بين الدول والمجتمع بالتركيز على مصر.

(تشكر الباحثة الأستاذة سلمى مصطفي والأستاذ عبد الرحمن السيد على تجميع المادة العلمية الخاصة بهذا البحث.)

مقدمة:

ارتفعت وتيرة الحركات الاجتماعية ذات المطالب الاقتصادية والاجتماعية بشكل لافت في العقد الأخير خاصة قبيل 2011، ولكنها استمرت بعدها أيضًا. وعلى الرغم من أن المطالب الاجتماعية والاقتصادية كانت في أولويات المحتجين في الانتفاضات العربية «عيش، حرية، كرامة إنسانية» كما كان الحال في مصر، و»شغل، حرية، كرامة وطنية» كما في تونس، فإن دول عربية عدة شهدت صعودًا واضحًا لليمين السياسي والاقتصادي بعد 2011 هذا الذي تبنى سياسات اقتصادية أدت إلى تنحية المطالب الاقتصادية - الاجتماعية جانبًا كي لا نقول إلى إخمادها. وهو الأمر الذي يستدعي طرح السؤال البحثي الآتي: كيف أثر صعود اليمين بسياساته الاقتصادية والسياسية المحافظة على مطالب العدالة الاجتماعية في المنطقة العربية بعد 2011؟

وللإجابة على هذا السؤال، نقترح في السطور القادمة تحليل أثر السباق العالمي الذي شهد صعودًا لليمين الشعبوي على تعضيد صعود اليمين في المنطقة العربية، ثم نركز على تحليل تأثير صعود اليمين المحافظ في المنطقة العربية على الحقوق

والمطالب الاقتصادية والاجتماعية من زاوية اتباعه سياسيات اقتصادية نيوليبرالية لا تعالج أزمات الاقتصاد الهيكلية وتزيد من السخط الاجتماعي، بل وتضعف من التركيبة السياسية القادرة على التخفيف من حدته، أو تلك القادرة على التعبير عنه بشكل منظم. وفي هذا الصدد نشير: أولًا، إلى أن هذا البحث سيركز على كل من تونس ومصر كدراستي حالة، بينما يكتفي بإشارات أقل عمقًا فيما يخص حالة المملكة العربية السعودية. فهذا البحث يعتبر هذه الأخيرة حالة خلفية مفيدة بالأساس لفهم أشمل لديناميات صعود اليمين في المنطقة العربية وتأثيرتها الاجتماعية. ثانيًا، أن هذا البحث يهتم بتأثير صعود اليمين في البلاد العربية موضوع الدراسة على الحقوق الاقتصادية والاجتماعية بغض النظر إن كان هذا اليمين شعبويًّا (مثل الحالة المصرية) أم لا (مثل تونس).

أولًا: السياق الدولي وبزوغ اليمين عربيًّا:

شهدت الأعوام الأخيرة صعودًا ملحوظًا لليمين عالميًّا (في أوروبا كما في الولايات المتحدة الأمريكية) كما شهدت المنطقة العربية صعودًا مؤكدًا للتيارات اليمينية الإسلامية خاصة تنظيم الدولة الإسلامية (داعش). وفي هذا السياق نقدم في السطور القليلة القادمة نبذة عن ظهورهما، وتأثير ذلك على نمو وترعرع اليمين سياسيًّا واقتصاديًّا في المنطقة العربية بعد 2011 خاصة في مصر والسعودية وتونس.

فعليًّا، حازت أحزاب اليمين الأوروبي على الكثير من الشعبية في السنوات القليلة الماضية، وهو الأمر الذي انعكس على نتائجها في الانتخابات على المستويين المحلي والأوروبي. ففي فرنسا مثلًا، فازت عام 2005 الجبهة الوطنية بـ11 مقعدًا في الانتخابات البلدية، ومقعدين في البرلمان الفرنسي (الجمعية الوطنية) بل وفاز الحزب أيضًا بـ25% من مجموع الأصوات في الانتخابات البرلمانية الأوروبية في العام نفسه بما تخطّى بقية الأحزاب الفرنسية. وفي بريطانيا، صعد حزب الاستقلال البريطاني (UKIP) (من أبرز الداعمين للانفصال عن الاتحاد الأوروبي) وفاز بعددٍ من المقاعد في الانتخابات البلدية، وحصل على مقعدٍ في مجلس العموم لأول مرة في تاريخه. وتفوّق أيضًا هذا الحزب على بقية الأحزاب البريطانية في الانتخابات الأوروبية 2014. وفي إيطاليا، المتعثرة اقتصاديًّا صعد اليمين المتطرف تحت قيادة حركة الخمسة نجوم الإيطالية، التي فازت في يونيو 2016 في انتخابات بلدية روما. وسرعان ما تصدّرت الصحف المحلية والعالمية عندما سيطرت على المشهد السياسي الإيطالي في نتائج الانتخابات التشريعية لعام 2018، والتي اكتسحتها الحركة حينما فازت بـ32% من المقاعد في مجلس النواب والشيوخ لتتصدّر الأحزاب الإيطالية بفارق كبير[3]. وفي هذا الإطار، جاءت

3 - «المنطقة العربية بين التغيرات الداخلية والسياق العالمي»، منتدى البدائل العربي للدراسات، التغيرات في المنطقة العربية وأثر التطورات الدولية «بين تيارات الشعبوية

الولايـات المتحـدة لتتويـج مسـار صعـود اليمـين المحافـظ بوصـول الرئيـس الأمريـكي دونالـد ترامـب إلى سـدة الحكـم في يناير 2017. وهـو الصعـود الـذي لحـق بصعـود الخطابـات والتوجهـات اليمينيـة في أمريـكا عقـب التحديـات الاقتصاديـة التـي تسـببت فيهـا الأزمـة العالميـة لعـام 2008.

وعـلى الرغـم مـن أن تلـك التوجهـات اليمينيـة بتجلياتهـا المختلفـة ليسـت سـواءً فإنهـا تتشـارك في عـددٍ مـن السـمات العامـة سـواء في أوروبـا أو في الولايـات المتحـدة. تشـمل تلـك السـمات المقاربـة النيوليبراليـة الاقتصاديـة، العـداء ولـو النسـبي للمؤسّسـية والاندمـاج في المؤسسـات العابـرة للقوميـة، سـواء كانـت تلك المؤسسـات هـي الاتحاد الأوروبي أو مناطـق التجـارة الحـرة كـما في حالـة الإدارة الأميركيـة الآن تحـت حكـم ترامـب. تتشـارك تلـك الأحـزاب أيضًـا في خطابهـا الإقصـائي الـذي يدعـم سرديـة «نحـن» ضـد «الآخريـن، بالإضافـة إلى العـداء الشـديد للديمقراطيـة الاجتماعيـة المسـتندة إلى الإرث اليسـاري لـدول الرفاهـة الاجتماعيـة[4]. فقـد هاجمـت مثـلًا الأصـوات اليمينيـة في شـبكة فوكـس الإخباريـة ومحطـات الراديـو الجمهوريـة واليمينيـة في مختلـف أنحـاء الولايـات المتحـدة سياسـات أوبامـا، ليـس فقـط بالتشـكيك في كـون أوبامـا أمريكيًّـا، بـل أيضًـا عـبر الترويـج إلى أن سياسـات الأخـير

والأصـوات البديلـة»، 2019، ص7.

4 - المرجع السابق، ص7.

تهـدف إلى تدمـير النظـام الاقتصـادي الأمريـكي كـما عرفتـه أمريـكا، و»أن فكـره أشـبه بفكـر جوزيـف سـتالين بـدون إسـالة دمـاء»، وأن خطـة الإصـلاح الاقتصـادي (التـي تهـدف إلى توسـيع نسـبي للمزايـا الاجتماعيـة للمواطـن الأمريـكي) اشـتراكية وشـيوعية[5].

وفي هـذا الإطـار، وكـما أوضـح محمـد المنشـاوي، مثلـت الزيـارة التاريخيـة التـي قـام بهـا الرئيـس ترامـب إلى الريـاض في مايـو 2017 منعطفًـا مهـمًّا في علاقـات التحالـف بـين اليمـين الأمريـكي وعواصـم عربيـة تتبنـى سياسـات متوائمـة مـع سياسـات ترامـب في المنطقـة العربيـة. وفي مفارقـة ليسـت بمدهشـة، قـام الملـك سـلمان، عقـب هـذه الزيـارة بأيـام، بإصـدار أمـر ملـكي أعفـى بمقتضـاه ولي العهـد، الأمـير محمـد بـن نايـف مـن منصبـه، وعـين نجلـه الأمـير محمـد بـن سـلمان مكانـه وليًّـا للعهـد، وهـو المعـروف بتوجهـه اليمينـي[6]. وفي هـذا الإطـار، قـدم الرئيـس الأمريـكي دعـمًا مؤكـدًا إلى الرئيـس المـصري عبـد الفتـاح السـيسي فـور توليـه حكـم البـلاد. فمثـلًا قـال ترامـب في خطابـه الختامـي أمـام مؤتمـر الحـزب الجمهـوري: «مـصر جـرى تسـليمها للراديكاليـين مـن الإخـوان المسـلمين، وهـو مـا أجـبر الجيـش

5 - محمـد المنشـاوي، «سلسـلة أوراق: دراسـات حالـة عـن التغيـرات الدوليـة وتأثيرهـا علـى المنطقـة العربيـة: الولايـات المتحـدة الأمريكيـة»، منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات, 2019، ص5 ، متاحـة علـى: http://www.afalebanon.org/ar/publication/8151/ سلسـلة - أورق - دراسـات - حالـة -عـن - التغيـرات - الـد2-/

6 - المرجع السابق، ص9.

عـلى إعـادة تـولى السـلطة». وقبـل ذلـك اتهـم ترامـب كلينتـون وأوباما بنـشر الدمـار في الـشرق الأوسـط، معتـبرًا أنهـما لعبـا دورًا في الإطاحـة بنظـام الرئيـس الأسـبق حسـني مبـارك، وتمهيـد الطريـق للإخـوان المسـلمين.7 ومـن المعـروف أن نظـام ترامـب مـن أقـوى الداعمـين للنظـام المـصري الحـالي ذي التوجهـات اليمينيـة، وهـو الأمـر الـذي حـرص الرئيـس الأمريـكي عـلى تأكيـده في كل المحافـل الدوليـة التـي جمعـت بـين الرئيسـيين، وكلـما سـنحت الفرصـة لذلـك.

وعـلى صعيـد آخـر، دفـع انـزلاق كل مـن سـوريا واليمـن وليبيـا إلى حالـة الاقتتـال الأهـلي إلى توفـير منـاخ ملائـم لصعـود التيـارات الإسـلامية العنيفـة عـلى غـرار تنظيـمات أنصـار الشريعـة في ليبيـا وجبهـة النـصرة في سـوريا، هـذا بالإضافـة إلى صعـود نجـم تنظيـم الدولـة الإسـلامية في العـراق وسـوريا الـذي أعلـن في صيـف 2014 عـن تأسـيس خلافتـه الممتـدة مـن الموصـل في العـراق وحتـى الرقـة في سـوريا. وأدت الفظائـع التـي ارتكبهـا الأخـير مـن قتـل وأسر وتدمـير للمعـالم الأثريـة إلى بـث الرعـب في نفـوس شـعوب المنطقـة العربيـة، خاصـة مـع نجاحـه في بنـاء مناطـق نفـوذ لـه في كل مـن مـصر وليبيـا واليمـن، بـل وسـعى أيضًـا إلى وضـع موطـئ قـدم لـه في مدينـة بـن قـردان التونسـية قبـل أن ينحـاز أهـالي المنطقـة إلى القـوات الأمنيـة

7 - المرجع السابق، ص10.

التونسية ويحبطوا تقدم مقاتلي الدولة في مارس/ أذار 8.2016 وكما يشير جورج فهمي أثارت كل هذه المآسي مخاوف قطاعات واسعة من المجتمعات العربية _خاصة في ظل ضعف هياكل دولهم وفشل تياراتهم السياسية في تقديم أي بديل يوازن ما بين إصلاح مؤسسات الدولة مع قضايا الحريات السياسية والاجتماعية_ ما دفع الكثير منهم إلى دعم نموذج الرجل القوي القادر على حماية الدولة ومواجهة خطر الإرهاب بصرف النظر عن طبيعة سياساته الاقتصادية والاجتماعية. وهو ما اعتمدته تيارات اليمين كنقطة أساسية في خطاباتها السياسية[9].

ومن ثم، فقد اجتمعت الظروف العالمية والإقليمية لتدعيم اليمين المحافظ وتعضيد سلطته في المنطقة العربية. من جهة، مناخ سياسي عالمي يشهد بزوغًا سريعًا لليمين المحافظ ويعضد وجوده. ومن جهة أخرى، تيارات يمينية إسلامية، بما تتسبب فيه من كوارث إنسانية، لا تدفع سوى إلى تدعيم سلطته عربيًّا.

ثانيًا: ارتفاع حدة الاحتجاجات الاجتماعية قبيل 2011

عانت المنطقة العربية قبيل 2011 من الاحتجاجات الاجتماعية

8 - جورج فهمي، «كيف صعد اليمين بنماذجه العربية المختلفة بعد 2011 رغم خطاب الربيع العربي المطالب بالحقوق السياسية والاجتماعية للشعوب العربية؟»، منتدى البدائل العربي، التغيرات في المنطقة العربية وأثر التطورات الدولية «بين تيارات الشعبوية والأصوات البديلة»، 2019 ، ص. 29.

9 - المرجع السابق، ص29.

التـي اتخـذت أشـكالًا مختلفـة ومتنوعـة مـا بـين احتجاجـات عماليـة كـما هـو الحـال في مـصر أو احتجاجـات العاطلـين عـن العمـل كـما هـو الحـال في تونـس. وكانـت هـذه الأخـيرة سـببًا رئيسـيًّا في انـدلاع الثـورات العربيـة في 2011. وفي السـطور القليلـة القادمـة نتنـاول هـذه الاحتجاجـات للتدليـل عـلى عمـق المظـالم الاجتماعيـة التـي تعـاني منهـا المنطقـة العربيـة باعتبارهـا تعبـيرًا عـن أزمـة هيكليـة ثنائيـة الأبعـاد لا تعكـس فقـط إشـكالية اتبـاع سياسـات نيوليبراليـة اقتصاديًّـا قبيـل 2011 _ ومـا سـببته مـن ارتفـاع حـدة الظلـم الاجتماعـي _ بـل أيضًـا غيـاب قنـوات التواصـل السـياسي اللازمـة للتعبـير عـن هـذه المطالـب ومنـع تفاقمهـا.

تفاقمـت مشـاكل تونـس الهيكليـة حتـى اندلعـت فيهـا احتجاجـات الحـوض المنجمـي الشـهيرة في إبريـل 2008. فعليًّـا، تكمـن مشـكلة تونـس مـن ناحيـة، في اختـلالات سـوق العمـل الـذي يحتاج إلى ذوي التعليـم غـير العـالي، ولا يسـتوعب النسـبة العاليـة مـن الشـباب الحاصـل عـلى الشـهادات الجامعيـة، حتـى وصلـت نسـبة البطالـة بـين الشـباب إلى 29.5٪ [10] وبـين الشـباب الحاصـل عـلى الشـهادات الجامعيـة إلى 22.9٪ في 2010.[11] وهـو الأمـر الـذي تفاقـم باتبـاع بـن

10 - "Tunisia: Youth Unemployment Rate from 1998 to 2018", Statista, https://www.statista.com/statistics/813115/youth-unemployment-rate-in-tunisia/

11 - Samiha Hamdi & Irene Weipert-Fenner, "Mobilization of the Mar-

عـلي السياسـات الاقتصاديـة النيوليبراليـة منـذ أواخـر الثمانينيـات. ومن ثـم، تقلصـت فـرص عمـل هـؤلاء الشـباب في القطـاع الحكومـي، وفي المقابـل، لم يوفـر القطـاع الخـاص سـوى فـرص عمـل لا تحتـاج إلى مؤهـلات عاليـة. وهـو الأمـر الـذي دفـع إلى تأسـيس اتحـاد المعطلـين عـن العمـل في 2006 الـذي نظـم العديـد مـن الاحتجاجـات لمطالبـة الدولـة بدمجهـم في سـوق العمـل. ومـن ناحيـة أخـرى، عانـت تونـس غيـاب العدالـة المناطقيـة تلـك التـي تمثلـت في تميـز المـدن السـاحلية في الشـمال (عـلى غـرار سوسـة ومونـاسـتير) بحالـة مـن الـرواج الاقتصـادي حيـث النشـاط السـياحي والاسـتثمارات والخدمـات العامـة، في حـين عانـت الولايـات الموجـودة في الوسـط والجنـوب (عـلى غـرار جفصـة والقصريـن وسـيدي بوزيـد مهـد الثـورة التونسـية) التهميـش وغيـاب التنميـة وتـدني الخدمـات ونقـص فـرص العمـل. فقـد وصلـت مثـلًا نسـبة البطالـة، في 2010، في ولايـة جفصـة في المجمـل إلى 28.3٪ (وإلى 46.5٪ بالنسـبة إلى الشـباب الحاملـين للشـهادات الجامعيـة) في حـين عانـت ولايـة مونـاسـتير مـن نسـبة بطالـة 6.1٪ فقـط.[12] وعـلى الرغـم، مـن أن الاقتصـاد النيوليـبرالي تحـت بـن عـلي حقـق متوسـط

ginalized: Unemployment Activism in Tunisia", American University of Beirut: Isaam Fares Institute for Public Policy and International Affairs, Working Paper 43, p. 5, http://www.aub.edu.lb/ifi/Documents/publications/working_papers/2017-2018/20171026_tunisia_working_paper.pdf

12 - المرجع السابق، ص5.

معدلات نمو وصلت إلى حوالي 5٪ في الأعوام السابقة لإزاحته فإن عوائد هذا النمو،[13] كما يبدو من الأرقام الموضحة أعلاه، لم يتم إعادة توزيعها بشكل عادل. وهو الأمر الذي تفاقم بسبب غياب قنوات شرعية للتعبير عن هذه المطالب الاجتماعية في ظل نظام سياسي مغلق قضى على الحياة السياسية وسيطر على الأقل على المستويات الفوقية للاتحاد التونسي للشغل.

ومن ثم، فلم يكن من المدهش أن تنطلق من مدينة الرديف حيث شركة الفوسفاط الشهيرة التي ارتبط بها أهل ولاية جفصة، الواقعة جنوب غرب العاصمة التونسية، احتجاجات العاطلين عن العمل في إبريل 2008، فكانت الشرارة الأولى لاندلاع ثورة الياسمين في 2010. ومن الجدير بالذكر أن هذه الاحتجاجات قد تزامنت مع احتجاجات عمال المحلة في مصر، أيضًا في شهر إبريل 2008، والتي اعتبرها الكثيرون إحدى الشرارات التي أطلقت الثورة المصرية. وقد خرجت احتجاجات العاطلين عن العمل في الحوض المنجمي بجفصة للمطالبة بالتنمية والعدالة الاجتماعية خاصة وأن شركة فوسفاط جفصة بدت غير قادرة على استيعاب الشباب من حاملي الشهادات بعد تقليص العمالة وفرص العمل فيها

13 - Edwin Tran, "Tunisian Success: An Economic Analysis", International Review, 28 September 2018, https://international-review.org/tunisian-success-an-economic-analysis/

ابتـداءً مـن الثمانينيـات واتباعًـا لوصفـة اللبرلـة الاقتصاديـة المعتـادة. وقـد دعمـت المسـتويات المحليـة الدنيـا للاتحـاد التونـسي للشـغل بقيـادة عدنـان الحجـي في الرديـف هـذه الاحتجاجـات. فرغـم أن هـذه المناطـق مـن أغنـى المناطـق مـن حيـث مسـاهمتها في الاقتصـاد التونـسي (تنتـج حـوالي 80٪ مـن إجـمالي إنتـاج تونـس للفوسـفاط) فـإن سـكانها يعيشـون في فقـر مدقـع ويعانـون غيـاب التنميـة.[14] ومـن ثـم لم يكـن غريبًـا أن يكـون شـعار الثـورة التونسـية في 2011 هـو «شـغل، حريـة، كرامـة وطنيـة» وهـو نفـس الشـعار الـذي تبنـاه اتحـاد المعطلـين عـن العمـل قبيـل الثـورة بسـنوات قليلـة.

وفي مـصر، كان تصاعـد الاحتجاجـات العماليـة معلـمًا رئيسـيًّا للتغـير السـياسي في مـصر في السـنوات السـابقة عـلى ثـورة ينايـر 2011. فبجانـب تصاعـد الاحتجاجـات السياسـية بظهـور حركـة كفايـة في أواخـر 2004، شـهدت البـلاد، ابتـداءً مـن العـام نفسـه أكـبر موجـة احتجاجـات عماليـة منـذ نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة كـما كانـت الأطـول في مدتهـا. وقـد جـاءت هـذه الاحتجاجـات كـرد فعـل تجـاه زيـادة وتـيرة السياسـات النيوليبراليـة التـي اتبعتهـا حكومـة أحمـد نظيـف (2004-2011). فكـما كان الحـال في تونـس، صاحـب تحسـن مـؤشرات الاقتصـاد الكليـة الناتجـة عـن الإسراع في وتـيرة السياسـات

14 - Samiha Hamdi & Irene Weipert-Fenner, "Mobilization of the Marginalized: Unemployment Activism in Tunisia", 2017, op.cit, p. 5

النيوليبرالية، في السنوات الأخيرة لحكم مبارك، تدهور واضح في مستوى معيشة الكثيرين. فقد ارتفعت معدلات التضخم، وانخفضت بالتبعية مستويات الأجور الحقيقية لأغلب العاملين بأجر. فقفز معدل التضخم من 4.7% في العام المالي 2004/2005 إلى 7.2% في العام التالي، ثم إلى 10.9% في 2007. وبالرغم من زيادة إجمالي الناتج القومي على المستوى الكلي للاقتصاد فإن الرواتب لم تشهد أي زيادة، بل انخفضت نسبة الرواتب إلى إجمالي الناتج القومي من 48.5% في أواخر الثمانينيات إلى 28.6% عام 1995 ثم إلى أقل من 20% عام 2007.

والواقع فإن 70% من احتجاجات عام 2004 اندلعت عقب تولي حكومة نظيف في يوليو 2004. وكان لنجاح إضراب عمال شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى في نهاية عام 2006 أثر محرك ودافع لتوسع الحركات الاحتجاجية العمالية. فمنذ عام 2007، شهدت الحركات الاحتجاجية العمالية ارتفاعًا غير مسبوق، إذ زادت بمعدل ثلاثة أضعاف عن العام الذي سبقه، قافزة من 266 عام 2006 إلى 614 عام 2007 و609 عام 2008، ثم إلى 728 عام 2009. وعلى الرغم من أن اتحاد عمال مصر (التنظيم النقابي الحكومي) اعتبرته الدولة الممثل الوحيد والأوحد للعمال (حتي عام 2017) بموجب القانون 35 لسنة 1976 فإن جميع هذه الاحتجاجات

العمالية انطلقت من خارجه لأنه لم يعبرعن مطالبها أو حراكها[15]. فالحقيقة هي أنه مع تسريع وتيرة السياسات النيوليبرالية في مصر منذ 2004، تم تزوير الانتخابات النقابية في المستويات الدنيا لاتحاد عمال مصر في 2006. بالطبع تزوير الانتخابات النقابية ليس بالأمر الجديد، إلا أن الجديد هنا هو تزويرها في المستويات الدنيا للاتحاد (مستوى اللجان النقابية) لضمان غياب أصوات معارضة بداخله لسياسات الخصخصة الجارية، هذا بالرغم من اقتصار سياسات التزوير الانتخابي على المستويات العليا للاتحاد في السابق. وهو الأمر الذي دفع إلى قطع قنوات التواصل بينه وبين العمال، هذا الذي كانت تضمن الحد الأدنى من توافره اللجان النقابية للاتحاد.[16]

وقد شهد عام 2008 دعوة إلى إضراب آخر لعمال المحلة في 6 إبريل 2008 طالبوا فيه بحد أدنى للأجور لجميع عمال مصر. وبالرغم من تضامن عدد غير قليل من القوى السياسية، ومن

15 - نادين عبدالله، «الحركة النقابية في مصر بين جهود التنظيم وتحديات التأثير»، في عمرو عادلي وفاطمة رمضان، صعود وأفول الحركة العمالية – العمال والسياسة والدولة في مصر (2006-2016)، دار المرايا للإنتاج الثقافي، 2017. ، ص. 41.

16 - Nadine Abdalla, "The Neoliberal Policies and The Egyptian Trade Union Movement: Politics of Containment and Limits of Resistance", In E. Akcali (Ed.), The Limits of Neoliberal Governmentality in the Middle East and North Africa, Palgrave Macmillan, 2015.

النشـطاء السياسـيين معـه ودعوتهـم إلى إضراب عـام في مـصر كلهـا، فلم تثمـر هـذه الدعـوات عـلى المسـتوي القومـي. ومـع ذلـك، انطلقـت مـن مدينـة المحلـة انتفاضـة شـعبية في هـذا اليـوم، كانـت الأكـبر منـذ انتفاضـة الخبـز التـي عرفتهـا مـصر في عهـد السـادات (1977). وفي هذا الإطـار، لم يكـن مـن الغريـب أن تلعـب الحركـة العماليـة المصريـة دورًا حاسـمًا في إسـقاط نظـام مبـارك مـع تكثيـف العـمال لاحتجاجاتهـم على نحـو تلقـائي في اليومـين السـابقين عـلى تنحيـة مبـارك مـا غـيّر المشـهد السـياسي برمتـه لصالـح ثـورة 25 ينايـر. وهـو الأمـر الـذي أكدتـه طبيعـة هـذه الاحتجاجـات التـي أخـذت أشـكالًا متتاليـة تصاعديـة مـن حيـث الكـم والانتشـار الجغـرافي. فوفقًـا لجريـدة المـصري اليـوم، ارتفـع عـدد الاحتجاجـات العماليـة مـن بضعـة احتجاجـات في عـدد مـن المحافظـات في 7 فبرايـر إلى 20 احتجاجًـا في 9 محافظـات في 8 فبرايـر ثـم إلى 35 احتجاجًـا في 14 محافظـة في 10 فبرايـر وأخـيرًا إلى 65 احتجاجًـا في 11 فبرايـر، يـوم تنحـي مبـارك. وتنوعـت القطاعـات المشـاركة في هـذه الاحتجاجـات مـن مزارعـين وموظفـين إلى سـائقي سـيارات أجـرة، فضـلًا عـن العـمال بالـشركات والمصانـع. وتركـزت المطالـب _كـما كان الحـال منـذ 2006_ في تحسـين الأحـوال المعيشـية، ورفـع المرتبـات والأجـور، ودفـع المسـتحقات الماليـة غـير المدفوعـة، وتثبيـت العمالـة المؤقتـة.[17]

17 - تقرير المصري اليوم مذكور في المرجع السابق، ص42.

حتى في السعودية، هذا البلد الغني بموارده النفطية، انطلقت الاحتجاجات قبيل 2011. فبالرغم من العائد العالي من النفط، فإن العدالة في توزيعها كانت غائبة في ظل نظام سياسي مغلق تغيب فيه وسائل المساءلة والشفافية. وهو أمر يمكن التدليل عليه على سبيل المثال لا الحصر بإحصائيات من صحيفة سعودي جازيت (2007) التي أكدت على تواجد الآلاف من المواطنين المشردين بدون منازل في المملكة وخاصة في جدة (حوالي 83000 طفل مشرد)[18]. فالسعودية تحت السطح بلدٌ يعاني تصاعد التحديات السياسية والاقتصادية والديمغرافية، كما أن تطلعات جيل الشباب الذي يواجه بطالة واسعة الانتشار آخذة في الارتفاع.[19] وهو الأمر الذي انعكس في معارضة المنطقة الشرقية حيث تقيم الغالبية العظمى من المواطنين الشيعة الاثنى عشرية في البلاد، والذين تقدّر نسبتهم بحوالي من 10 إلى 15 ٪ من مجموع السكان حيث تجمع الإهمال الاقتصادي والتهميش السياسي على المستوى المحلي.[20] وكان من أكبر الاحتجاجات قبيل 2011 تلك الاحتجاجات التي وقعت في المدينة المنورة في فبراير 2009، وهي مدينة يبجّلها

18 - Sherifa Zuhur, "Saudi Arabia", ABC-CLIO, 2011, p. 376.

19 - فردريك ويري، «الانتفاضة المَنسيّة في شرق المملكة العربية السعودية»، كارنيجي، 14 يونيو 2013،
https://carnegieendowment.org/sada/?fa=52218&lang=ar

20 - المرجع السابق.

الشيعة لأنها تضم قبور أئمة الشيعة. فقد اندلعت هناك اشتباكات بين الحجاج الشيعة الذين كانوا يزورون المقبرة وأفراد من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التابعة للنظام. ومع أن الروايات الخاصة بالحادث تختلف، فيبدو أن شرارة الاضطرابات انطلقت عندما قامت الشرطة الدينية بتصوير إناث من الحجّاج الشيعة. بعد ذلك، دخلت قوات الأمن إلى الأحياء الشيعية في المدينة حيث قامت بضرب السكان واعتقالهم، وأُصيب العشرات نتيجة لذلك.[21]

ومن ثم، فيبدو واضحًا في الحالة المصرية والتونسية أن تفاقم المظالم الاقتصادية والاجتماعية في إطار سياسات اقتصادية دفعت إلى تدهور الوضع الاجتماعي، تلك التي اقترنت بأزمات هيكلية للاقتصاد وغياب قنوات سياسية لتفريغ هذه المظالم وإيصالها، نتج عنها ارتفاع واضح في وتيرة الاحتجاج الاجتماعي قبيل 2011. وهو أمر بدى يظهر على السطح في بلد مثل المملكة العربية حيث بزوغ مشكلات التهميش الاجتماعي والسياسي لفئات اجتماعية وعمرية بعينها.

21 - المرجع السابق.

ثالثاِ: اليمين وارتفاع وتيرة السياسات النيوليبرالية بعد 2011

لم تتوقف الاحتجاجات الاجتماعية عقب 2011 بل زادت قوتها واستمرت سواء في مصر أو تونس، هذا بالإضافة إلى انتشار الاحتجاجات المطالبة بالعدالة الاجتماعية في المملكة العربية السعودية منذ ذلك الحين. والحقيقة هي أن النظم اليمينية التي تولت السلطة في السنوات اللاحقة لهذا العام اتبعت تقريبًا السياسات النيوليبرالية نفسها التي كانت متبعة من ذي قبل. ومن ثم، هي لم تغفل فقط الأبعاد الاجتماعية للسياسات الاقتصادية، متسببة في تصاعد وتيرة الاحتجاج الاجتماعي مرة ثانية، بل أيضًا فشلت في علاج مشكلات الاقتصاد الهيكلية بشكل يزيد من هشاشة الوضع الاجتماعي والسياسي في البلاد. وهي الأمور التي سنناقشها في السطور القليلة القادمة.

في تونس، بعد فترة الصراع والاستقطاب السياسي الذي شهدته البلاد منذ 2011، وإثر الدور الذي لعبه الاتحاد التونسي للشغل للوساطة ونزع فتيل الأزمة وصولًا إلى الانتخابات الرئاسية والبرلمانية لعام 2014، وصل الباجي قيد السبسي رئيس حزب نداء تونس ذي التوجهات اليمينية إلى السلطة في نوفمبر 2014، وحصل حزب النهضة الإسلامي اليميني (صاحب أكبر عدد من مقاعد بالبرلمان التونسي بعد حزب نداء تونس) على عدد من الحقائب الوزارية.

والحقيقة هي أن الحكومات الجديدة لم تفكر (أو لم تُرِد) منذ ذلك الحين في تغيير الخيارات الاقتصادية النيوليبرالية المتبعة سابقًا بل تم اعتماد السياسات القديمة.ذاتها. فبالرغم من تطور مجال الإدارة السياسية، لم تتبدل السياسات الاجتماعية - الاقتصادية كثيرًا، ولم تخطُ البلاد نحو العدالة الاجتماعية. فمن ناحية، انطلقت الحكومة بسرعة كبيرة في تبني سياسات الصندوق النقد الدولي النيوليبرالية في مقابل الحصول على قرض بقيمة 2.8 بليون دولار في 2016. ومن ثم، قامت بسلسلة من الإجراءات، وأدرجتها في موازنة 2018 على غرار فرض ضرائب على الاستهلاك وفرض مزيد من الإجراءات التقشفية، هذا بالإضافة إلى تقليل الإنفاق العام عبر وقف التعيينات، ومنع زيادة المرتبات الحكومية.[22] وهي جميعها سياسات ترمي إلى تقليص نسبة العجز بميزان المدفوعات (الذي انخفض بالفعل من 6% في 2017 من الناتج المحلي الإجمالي إلى 4.6% في 2018)[23] ولكنها لا ترقى إلى معالجة اختلالات الاقتصاد الهيكلية المتمثلة من ناحية، في اختلالات سوق العمل (حيث

22 - Tarek Emara, "IMF disburses $247 million loan tranche to Tunisia", Reuters, 2019, https://www.reuters.com/article/us-tunisia-imf-loans/imf-disburses-247-million-loan-tranche-to-tunisia-idUSKCN1TD272

23 - صندوق النقد الدولي، «أسئلة وأجوبة عن تونس»، يوليو 2019
https://www.imf.org/ar/Countries/TUN/tunisia-qandas ،

ارتفعت معدلات البطالة بين الشباب إلى 34.8٪ في 2018)[24]، ومن ناحية أخرى، في التفاوت الخطر بين مناطق تونس الساحلية وبين ضواحيها المهمّشة، هذا الذي استمر كمصدر لانعدام الاستقرار وتهديد لتوطيد الديمقراطية، ولا تزال المحنة الاقتصادية على حالها في هذه المناطق المهمشة التي تشكّل ما يقرب من نصف البلاد. ففي العام 2013، نالت 18 بلدية (بما في ذلك تونس العاصمة وضواحيها المرسى وحلق الوادي وسيدي بوسعيد وقرطاج) 51 في المئة من ميزانية الدولة للبلديات، بينما لم تنل الـ246 بلدية المتبقية سوى 49 في المئة.25 وترجع صعوبة سدّ الفجوة بين شطري تونس إلى أسباب هيكلية تتمثل في افتقار المناطق الداخلية بتونس إلى البُنى التحتية ما يصعب من جذب المستثمرين. والحقيقة هي أن نوعية السياسات الاقتصادية اليمينية الانكماشية المتبعة لا تساعد في زيادة الإنفاق على هذه البني التحتية، ومن ثم فهي لا تمكن السلطة الحاكمة من جلب الموارد الاقتصادية لبنائها، وضخ الاستثمارات اللازمة في هذه المناطق المهمشة اقتصاديًّا.[26]

---

24 - "Tunisia: Youth Unemployment Rate from 1998 to 2018", Statista, op.cit.

25 - سارة سركيس ومروان المعشر، «اللامركزية في تونس: تعزيز المناطق، وتمكين الشعب»، كارنجي، 11 يونيو 2018،

https://carnegie-mec.org/2018/06/11/ar-pub-76529

26 - مهي يحيى، «آمال معلقة في تونس»، مصدر سابق.

وبالتالي، كان من الطبيعي أن تستمر الاحتجاجات الاجتماعية، ونذكر منها على سبيل المثل لا الحصر: احتجاجات المعطلين عن العمل التي اندلعت في ولاية جفصة في ربيع 2015، ومن ولاية القصرين في يناير 2016، حتى وصل الأمر إلى تعطيل المحتجين لخطوط نقل الفوسفاط لمحاولة جذب انتباه سلطة تجاهلتهم، أو على الأقل فشلت في حل مشكلاتهم.[27] هذا بالإضافة إلى اعتصام الكامور في الجنوب التونسي، وهي حركة احتجاجية كبيرة حدثت ما بين إبريل ويونيو ،2017 وتم فيها تعطيل إمدادات البترول احتجاجًا على غياب التنمية والتشغيل والتوزيع العادل للثروات الطبيعية.[28] وكرد فعل على قانون المالية الذي أصدرته الحكومة امتثالًا لشروط صندوق النقد الدولي _هذا الذي فرض ضرائب على استهلاك عموم المواطنين في لحظة اقتصادية ضاغطة[29] _ اندلعت في ذكري الثورة التونسية (في يناير 2018) احتجاجات واسعة من

27 - Irene Weipert-Fenner, "Unemployed mobilisation in times of democratisation: the Union of Unemployed Graduates in post-Ben Ali Tunisia", The Journal of North African Studies, 2018, https://www.tandfonline.com/doi/full/10.1080/13629387.2018.1535317

28 - نيصاف البراهمي، «سلسلة أوراق: دراسات حالة عن التغيرات الدولية وتأثيرها على المنطقة العربية: تونس»، منتدى البدائل العربي للدراسات، 2019 ، http:// www.afalebanon.org/ar/publication/afa-contributor/نصاف-براهمي/

29 - Jihan Chandoul, "The IMF has choked Tunisia. No wonder the people are protesting", The Guardian, 18 January 2018, https://www.theguardian.com/commentisfree/2018/jan/17/imf-tunisia-people-rioting-2011-economic-reforms

الضواحي الفقيرة للعاصمة التونسية. وردًّا على منع زيادة المرتبات الحكومية، الذي بررته الحكومة بارتفاع كتلة أجور موظفي القطاع العام إلى 13.7 مليار دينار تونسي في 2017 مقابل 13 مليار دينار في 2016 ،[30] اندلعت شرارة الإضراب العام الذي نظمه الاتحاد التونسي في يناير 2019 ما تسبب في حالة شلل للاقتصاد التونسي.[31]

وفي مصر، استمرت أيضًا السياسات النيوليبرالية ابتداءً من حكم الإخوان في 2012، وانتهاءً بنظام السيسي من حيث تسريع وتيرة عمليات التقشف الاقتصادي، ورفع الدعم عن المحروقات. وهو الأمر الذي عبرت عنه سياسات الرئيس مرسي، والمفاوضات التي أجراها مع صندوق النقد الدولي في أواخر أغسطس 2012، مقابل الحصول على قرض من الصندوق بقيمة 4.8 مليار دولار.[32] ومنذ نوفمبر 2016، وبعد حصول نظام السيسي علي قرض بقيمة

---

30 - شهدت سنوات 2010ــ 2016 زيادة 50% في عدد موظفي القطاع العام، وزيادة 100% في كتلة الأجور.

«الاتحاد العام التونسي للشغل يؤكد رفضه مشروع ميزانية 2017»، فرانس 24، 17 أكتوبر 2016 ، https://www.france24.com/ar/20161017-تونس-اتحاد-العمال-نقابة-صراع-الحكومة-أجور

31 - Tarek Emara, "Big strike paralyses Tunisia, thousands protest over pay row", Reuters, 17 January 2019, https://www.reuters.com/article/us-tunisia-strike/tunisias-largest-union-stages-nationwide-strike-over-pay-idUSKCN1PA34G

32 - «مصر تسعى لاقتراض 8,4 مليار دولار من صندوق النقد الدولي»، فرانس 24 ، 30 ديسمبر 2012 ، https://www.france24.com/ar/20121230-مصر-صندوق-النقد-الدولي-اقتصاد-قرض-محم-مرسي-الجنيه-الدولار

12 مليـار دولار، بـدأ النظـام المـصري في اتخـاذ إجـراءات اقتصاديـة مؤلمـة كان لهـا تبعاتهـا السـلبية عـلى أوضـاع المواطنـين. وبـدأت تلـك التدابـير الاقتصاديـة التقشـفية منـذ قـرارات 3 نوفمـبر الاقتصاديـة بتعويـم الجنيـه المـصري، مـرورًا بقـرارات يوليـو 2018، التـي دفعـت إلى زيـادة أسـعار البنزيـن والسـولار والبوتاجـاز بنسـب تراوحـت بـين 5% و100%، وهـي الزيـادة الثانيـة في ثمانيـة أشـهر. كـما رفعـت الحكومـة أسـعار الكهربـاء، وزادت نسـبة ضريبـة القيمـة المضافـة المطبقـة عـلى مختلـف السـلع والخدمـات.[33] وكـما هـو الحـال في تونـس، سـعت الحكومـة إلى إصـدار قانـون الخدمـة المدنيـة الـذي يهـدف إلى تخفيـف الحمـل عـلى الموازنـة مـن خـلال تخفيـض رواتـب موظفـي الدولـة عـبر منـع زيادتهـا السـنوية الدوريـة. والحقيقـة هـي أن هـذه الإجـراءات الاقتصاديـة الراميـة أيضًـا إلى تخفيـض عجـز الموازنـة العامـة ومعالجـة بعـض الاختـلالات الماليـة فيهـا _خاصـة تلـك المتعلقـة بالدعـم عـلى المـواد البتروليـة الـذي وصلـت فاتورتـه إلى حـوالي 20٪ مـن الإنفـاق العـام و6٪ مـن الناتـج الإجـمالي في 2014[34] _ لا ترقـى أيضًـا إلى عـلاج

33 - شـيماء الشـرقاوي، «سلسـلة أوراق: دراسـات حالـة عـن التغيـرات الدوليـة وتأثيرهـا علـي المنطقـة العربيـة: مصـر»، منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات، 2019، http:// www.afalebanon.org/ar/publication/8142/سلسلة-أوراق-دراسـات-حالة-عن-التغيرات-ال2-/

34 - عمـرو عادلـي ، «عـلى مـا تعـول الحكومـة المصـري لإنقـاذ الاقتصـاد»، الشـروق ، 18 يوليـو 2014، https://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?c-

مشـكلات الاقتصـاد الهيكليـة في مـصر تلـك المتعلقـة بغيـاب القطـاع الصناعــي بالإضافــة إلى تبعيتــه عــلى واردات الخــارج (مــصر حاليًــا مســتورد صــافٍ للغــذاء والمــواد البتروليــة). ومــن ثــم، فهــي تحتــاج إلى سياسـات تصنيعيـة تنمـي قطـاع الصناعـات التحويليـة (بلاسـتيك، حديـد وصلـب، كيماويـات) ذي التبعيـة الأقـل عـلى واردات الخـارج[35]. كـما تحتـاج أيضًـا إلى سياسـات توجـه النمـو الاقتصـادي في قطاعـات كثيفـة العمالـة بـدلًا مـن تواجدهـا الحـالي في القطاعـات كثيفـة رأس المـال أو الطاقـة (مثـل قطـاع البنـوك، الغـاز الطبيعـي والاتصـالات).[36] وهـي أمـور لا تعالجهـا سياسـات النقـد الـدولي أو التوجهـات اليمينيـة القـاصرة الحاليـة.

مـن ثـم لم يكـن مـن الغريـب أن يصاحـب ارتفـاع معـدل النمـو الاقتصـادي الـذي وصـل إلى 5٪ في 2017/ 2018، بـل وارتفـاع متوسـط دخـل الأسر سـنويًا مـن حـوالي 44 ألـف في 2015 إلى حـوالي 59 ألـف جنيــه في عــام 2017/ 2018 ارتفاعًــا مماثــلًا لمعــدلات الفقــر، التــي

---

date=18072014&id=77a0b49a-3608-4684-9dad-1563a4aec33a

35 - Amr Adly, "Satisfying the IMF won't solve Egypt's problems", Bloomberg, 30 January 2019, https://www.bloomberg.com/opinion/articles/2019-01-30/why-satisfying-the-imf-doesn-t-solve-egypt-s-problems

36 - Amr Adly, "How Economic Growth is Making Many Egyptians Poorer", Bloomberg, 21 August 2019, https://www.bloomberg.com/opinion/articles/2019-08-21/how-economic-growth-is-making-many-egyptians-poorer

ارتفعت في الأعوام نفسها بما يقترب من 4.7٪ ، أي من 27.8٪ في 2015 إلى 32.5٪ في 2017/ 2018 وفقًا لتقرير الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء الصادر في أغسطس 2019 ،[37] هذا بعد أن كان معدل الفقر 25.2% في 2010. ويمكن تفسير ارتفاع معدلات النمو ومتوسط الدخل المصحوبين بارتفاع معدل الفقر بالآتي: إما أن التضخم قد قضى على أغلب ما حققه النمو، أو على الأرجح، أن هذا النمو لم يكن عادلًا، فاستفاد منه البعض واغتنى، وافتقر آخرون، وهم كثر.[38] وهنا كان من الطبيعي أن تقفز الاحتجاجات العمالية من 530 احتجاجًا في 2010 إلى 1400 في عام 2011 و1969 في عام 2012 و22 [39] في عام 2013. ورغم انخفاضها تدريجيًّا مع انحسار المجال العام ابتداءً من 2014 فوصلت إلى 1655 في 2014 و934و39 في 2015 و726 في 2016 [40] فإن هذه المعدلات لا تزال

---

37 - وكان الجهاز قد حدد خط الفقر لهذا العام عند مستوى 735.5 جنيهًا شهريًّا بما يقرب من 25 جنيهًا يوميًّا.

38 - نادين عبد الله، «أرقام ذات دلالات»، المصري اليوم، 2 أغسطس 2019،
https://www.almasryalyoum.com/news/details/1417098

39 - «الاحتجاجات الاقتصادية والاجتماعية لعام 2015»، تقرير صادر عن المركز المصري للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 15 يناير 2016،
http://ecesr.org/?p=774766

40 - «1736 احتجاجًا في مصر خلال 2016»، بيان صحفي صادر عن المركز المصري للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 25 ديسمبر 2016،
http://ecesr.org/?p=775172

أعلى مما كان الوضع عليه قبيل الثورة. وفي هذا الإطار نشير إلى تأسيس تحالف «تضامن» من قبل العديد من النقابات المتضررة من قانون الخدمة المدنية على غرار موظفي الضرائب العقارية والضرائب على المبيعات وغيرهم من موظفي الدولة. وقد نجح هذا التحالف في إجبار البرلمان في يناير 2016 على رفض قانون الخدمة المدنية، الذي تم تبنيه لاحقًا بعد تعديل بعض بنوده في يوليو 2016.[41] هذا بالإضافة إلى الاحتجاجات الأخيرة التي شهدتها مصر في 20 سبتمبر 2019، تلك التي لم تنظمها معارضة سياسية أو تنظيمات نقابية أو عمالية، ولكنها خرجت بشكل تلقائي منددة بسوء الأحوال الاقتصادية والسياسية بعد تناقل وسائل التواصل الاجتماعي روايات عن فساد النظام الحالي.

وحتى النظام السعودي، لم يسلم من الضغوط الاقتصادية بعد 2011. فقد عانت المملكة أكبر عجز لها في الموازنة عام 2015، هذا الذي يُقدر بنحو 366 مليار ريال، مسجلة عجزًا للعام الثاني على التوالي بعد أن عانت خلال عام 2014 عجزًا قيمته 66 مليار ريال.[42] وهو ما يمكن فهمه في إطار العديد من الإجراءات

41 - Nadine Abdalla, "From the dream of change to the nightmare of structural weakness: The trajectory of Egypt's independent trade union movement after 2011", In I. Weipert-Fenner and J. Wolff (Eds), Socio-economic Protests in MENA and Latin America. Egypt and Tunisia in interregional comparison, Palgrave Macmillan, 2020.

42 - أسماء حسن الخولي، «موازنة السعودية 2018: ملاحظات أولية»، إضاءات،

والقـرارات التـي كلفـت المملكـة كثـيرًا، مثـل: حـرب اليمـن وسـوريا بالإضافـة إلى دعمهـا المـادي للنظـام المـصري، وهـي أمـور جـاءت بالتـوازي مـع تراجـع الإيـرادات النفطيـة بنسـبة 51% حيـث انخفضـت أسـعاره (مـن 86 دولارًا للبرميـل في أول 2014 إلى 42 دولارًا للبرميـل في آخـر 2014) علـمًا بـأن تصديـر النفـط يشـكل 80٪ مـن إيـرادات الدولـة السـعودية.[43] و في هـذا الإطـار، أسـس ولي العهـد الأمـير محمـد بـن سـلمان في ينايـر 2015 لرؤيـة اقتصاديـة نيوليبراليـة قائمـة عـلى إجـراء سياسـات تقشـفية غـير مسـبوقة هبطـت بالإنفـاق الحكومـي بنسـبة 30%. [44] فقامـت الحكومـة بخفـض رواتـب الـوزراء بنسـبة 20%، وخفـض رواتـب أعضـاء مجلـس الشـوري في سـبتمبر 2016 [45]، هـذا بالإضافـة إلى زيـادة أسـعار المحروقـات بنسـبة 50٪ ورفـع أسـعار الميـاه والكهربـاء بنسـبة الثلثـين في أواخـر 2015، علـمًا بـأن دعم أسـعار

---

21 ديسـمبر 2017، https://www.ida2at.com/notes-on-saudi-budget-2018/

43 - عمـر خلـف، «سلسـلة أوراق: دراسـات حالـة عـن التغيـرات الدوليـة وتأثيرهـا عـلى المنطقـة العربيـة: السـعودية»، منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات، 2019، ص3 ، http:// www.afalebanon.org/ar/publication/8161/سلسلة-أورق-دراسـات-حالة-عن-التغيرات-الد3-/

44 - عمـر خلـف، «سلسـلة أوراق: دراسـات حالـة عـن التغيـرات الدوليـة وتأثيرهـا عـلى المنطقـة العربيـة: السـعودية»، منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات، 2019 ، ص. 3 ، http:// www.afalebanon.org/ar/publication/8161/سلسلة-أورق-دراسـات-حالة-عن-التغيرات-الد3-/

45 - «السـعودية تعلـن عـن خطـة تقشـف تشـمل خفض مرتبـات الوزراء»، بي بي سـي، 27 سـبتمبر 2016 ، https://www.bbc.com/arabic/business/2016/09/160927_saudi_arabia_decrees

الطاقة كلف الخزينة السعودية حوالي 61 مليار دولار في 2015. [46]

ولمواجهة اعتمادية النظام على النفط بدأ النظام السعودي في التفكير في سبل مختلفة لتنمية إيرادات الدولة واقتصادها. ففي 25 إبريل 2016 أعلن بن سلمان عن خطة واسعة ذات مضمون وتوجه نيوليبرالي تحت عنوان رؤية «2030» تضمنت خصخصة الملكية العامة السعودية في قطاعات إستراتيجية كالنفط وعلى رأسها أرامكو، وبالتالي، التفريط في أحد أهم مصادر تمويل موارد الدولة السعودية لصالح القطاع الخاص. فقد أشارت رؤية 2030 بوضوح إلى أن «الاستمرار في تخصيص الأصول المملوكة للدولة من شأنه أن يحقق عوائد إضافية ومتنوعة للاقتصاد، مما سينتج عنه زيادة مواردنا النقدية وسيؤدي استثمارها بحكمة إلى إحداث أثر إيجابي على المدى الطويل، وسيتيح ذلك تنمية الأدوات الاستثمارية التي نمتلكها وتطويرها، وبخاصة صندوق الاستثمارات العامة الذي نهدف إلى أن يصبح أكبر صندوق سيادي استثماري في العالم بعد نقل ملكية أرامكو إليه.» [47]

والأهم، سعت رؤية «2030» إلى تنويع موارد الاقتصاد السعودي ومضاعفة حجمه، وخلق 6 ملايين وظيفة خلال الخمسة عشرة سنة المقبلة من خلال تنفيذ مشروعات في قطاعات الترفيه

46 - «السعودية - أين يكمن مأزق مناخ الاستثمار؟»، دويتش فيلا، 4 مارس 2018 ، https://www.dw.com/ar/السعودية-أين-يكمن-مأزق-مناخ-الاستثمار/a-42807328

47 - موقع رؤية المملكة العربية السعودية 2030 ، مذكور في المرجع السابق، ص3.

والإعلام والبيئة والطاقة، وهو الأمر الذي يتطلب قدرًا هائلًا من الاستثمارات الأجنبية.[48] وبالرغم من أن الموازنة العامة للسعودية حققت فائضًا بنحو 27.8٪ (7.4 مليار دولار) في الربع الأول من العام الحالي، وهو أول فائض في الموازنة منذ عام 2014. وبالرغم من القفزة في الإيرادات غير النفطية بنسبة 46٪ لتصل إلى 20.3 مليار دولار[49]، بل وبالرغم من المشروعات الاجتماعية التي ينوي ولي العهد إنشاءها على غرار مشروع «سند محمد بن سلمان» الذي يوفر لحديثي الزواج فرصًا للدعم المادي على أن يكون راتبهم لا يتعدى 4000 ريال سعودي وأن يكونوا حاصلين على شهادة الثانوية[50] بهدف دفع الطبقة المتوسطة المنخفضة والمتوسطة[51] نحو تحصيل علمي أعلى مما يتماشى مع متطلبات الرؤية 2030 فإن أغلب المشروعات التي بُدئ العمل فيها هي في جوهرها مشروعات خدمية ترتبط بالسياحة والترفيه،[52] ومن ثم فهي ليست أداة لتنمية الاقتصاد وتطويره. نذكر على سبيل

48 - https://www.eremnews.com/economy/travel/1039758

49 - «السعودية تخرج من عجز الموازنة لأول مرة منذ 5 سنوات»، العرب، 25 إبريل 2019 ، https://assetix.pro/السعودية-تخرج-من-عجز-الموازنة-لأول-مرة-منذ-5-سنوات?__cpo=aHR0cHM6Ly9hbGFyYWIuY28udWs

50 - المواطن، (2018، ديسمبر 30) «سند محمد بن سلمان... هنا طريقة التسجيل في سند الزواج»، المواطن، 30 ديسمبر 2018، https://is.gd/89tmrO/

51 - Mishary Alnuaim, "The composition of the Saudi middle class: A Preliminary Study", Gulf Research Center, 2013,p. 3-55, https://www.files.ethz.ch/isn/171150/Middle_Class_8157.pdf0.pdf

52 - المرجع السابق، ص. 4.

المثـال لا الحـصر، بنـاء 4775 فيـلا سـكنية في منطقـة الطائـف بدايـة مـن $134000 للوحـدة، بالإضافـة إلى 67 «مشروعًـا» سـكنيًّا في مناطـق مختلفـة مـن ضمنهـا مشـاريع في منطقـة مكـة المكرمـة التـي مـن المقـرر أن توفـر 122 ألـف وحـدة سـكنية[53]. هـذا بالإضافـة إلى مـشروع حديقـة الملـك سـلمان الـذي يتوقـع أن يوفـر 50 ألـف فرصـة عمـل، وأن يسـاهم في دور السـعودية في الحفـاظ عـلى البيئـة[54]. فعـلى الرغـم مـن أن هـذه المشـاريع يمكـن أن تسـاهم في حـل مشـاكل البطالـة عـلى الأقـل في الأمـد القريـب والمتوسـط، فإنهـا لا تسـتهدف في الأسـاس الطبقـة المتوسـطة التـي تعـاني ارتفـاع أسـعار السـكن والبطالـة تلـك التـي وصلـت إلى 11.7٪ للذكـور و32.8٪ للنسـاء في 2015 [55].

وقـد دفعـت الإجـراءات التقشـفية سـابقة الذكـر إلى الاحتجـاج الاجتماعـي. فبالإضافـة إلى الأمـراء الذيـن نزلـوا عـلى رأس مظاهـرات محـدودة احتجاجًـا عـلى خفـض رواتبهـم ورفـع الدعـم على اسـتهلاكهم

53 - Angitha Pradeep, (2019, September 15) "Saudi Arabia launches 4,775-unit residential project in Taif region", ME Construction News, 15 September 2019, https://meconstructionnews.com/36779/saudi-arabia-launches-4775-unit-residential-project-in-taif-region

54 - Jason Saundalkar, "Saudi Arabia invests $23bn into Riyadh wellness projects", ME Construction News, 26 September 2019, https://meconstructionnews.com/37009/saudi-arabia-invests-23bn-into-riyadh-wellness-projects

55 - Abdulaziz Albrithen, "Child Poverty and Youth Unemployment in Saudi Arabia: Child Poverty in Saudi Arabia", Poverty & Public Policy, September 2018, vol. 10 issue 3, p. 373.

لخدمات مثل الكهرباء في يناير 2018،[56] اتسعت رقعة الاحتجاجات لتمتد إلى فئات الشعب السعودي على شبكات التواصل الاجتماعي. وهو ما دفع النظام السعودي إلى سرعة تخفيف العبء الاقتصادي في 2018 من خلال إعلان مكافأة سنوية لجميع موظفي الدولة، وقيمة بدل شهري بألف ريال (266 دولارًا) علمًا بأن عدد موظفي القطاع العام في السعودية هو 3 ملايين موظف بما يشكل 70٪ من السعوديين، هذا بالإضافة إلى زيادة منح الدعم للطلبة بنسبة 10٪.[57]

فالواضح هو أن السياسات اليمينية ذات التوجهات النيوليبرالية التي تم اتباعها بعد 2011 في هذه البلاد لم تحل مشكلات الاقتصاد الهيكلية، وانعكاساتها الاجتماعية من غياب العدالة الاجتماعية وزيادة معدلات البطالة، حتى وإن تمكنت من معالجة أزماته المالية الآنية خاصة فيما يتعلق بخفض عجز الموازنة. ومن ثم، فهي أعادت إنتاج نظم اقتصادية شبيهة بتلك المتبعة قبيل 2011، ولكن في ظل ظروف اقتصادية أسوأ وتدهور اجتماعي أكبر.

رابعًا: اليمين وحدود الإصلاح السياسي والنقابي بعد 2011

56 - «مظاهرات في الرياض...والمتظاهرون أمراء»، الكوثر، 9 يناير 2018 ، http:// www.alkawthartv.com/news/114891

57 - «السعودية تتراجع عن التقشف بعد ردود الفعل السلبية»، سي إن إن، 10 يناير 2018، https://arabic.cnn.com/business/2018/01/10/saudi-arabia-austerity-backlash

استتبع تبني اليمين سياسات اقتصادية محافظة تبنيه إصلاحات أو تغييرات سياسية منفردة أيضًا كما هو الحال في تونس، أو سلطوية كما هو الحال في مصر أو صورية سلطوية كما هو في المملكة العربية السعودية. كما صاحب هذه الإجراءات السياسية إنهاكًا وإضعافًا لقدرة التنظيمات الاجتماعية ذات المطالب الاقتصادية الاجتماعية (مثل النقابات العمالية) على التنظيم وعلى تمثيل قواعدها، ومن ثم، إضعاف قدرتها على تمثيل هذه المطالب الاجتماعية وهذه الحقوق الاقتصادية بشكل منظم على الساحة السياسية كما في مصر أو الضغط عليها من خلال برامج الخصخصة بشكل يوتر علاقتها بقواعدها، ومن ثم يضعفها كما هو الحال مع الاتحاد التونسي للشغل في تونس، أو استخدامها كواجهة متناقضة لكنها لازمة لاستكمال الصورة الليبرالية للاقتصاد كما في المملكة السعودية.

فعليًّا، تعاني تونس غياب آلية حوار ومشاركة فعالة فيما يتعلق بالقضايا الاقتصادية والاجتماعية. وهو الأمر الذي قوَّض الدعم الشعبي لخطة التنمية للأعوام 2016-2020 التي اقترحتها الحكومة بشكل منفرد. وفي هذا الإطار، تم إهمال آليات مثل الحوار الاقتصادي الثلاثي الذي تم إطلاقه في عام 2012، ولم تتم الإفادة من المجلس الوطني للحوار الاجتماعي رغم أن من خلاله

يمكـن للحكومـة ونقابـات العـمال والقطـاع الخـاص مناقشـة الخطـة الاقتصاديـة الخمسـية للبـلاد، وخيـارات السياسـة العامـة، وأولويـات الإصـلاح، وبالتـالي إعـادة الطريـق أمـام إمكانيـة تحقيـق وفـاق اجتماعـي - اقتصـادي قـادر عـلى تعضيـد التوافـق السـياسي.[58] وفي هـذا الإطـار نشـير إلى أنـه بالرغـم مـن رفـض الاتحـاد التونـسي للشـغل قـرارات الحكومـة الخاصـة بالخصخصـة وبيـع الـشركات العموميـة[59] التـي تـم اتخاذهـا بشـكل منفـرد مـن قبـل الأخـيرة[60] فـإن قـدرة الاتحـاد التونـسي للشـغل عـلى الصمـود تجـاه مسـاعي الخصخصـة المتزايـدة والمصالـح الدوليـة والداخليـة التـي تعـبر عنهـا أصبحـت محـل شـك متزايـد. وهـو الأمـر الـذي قـد يعرضـه للانشـقاق الداخـلي نتيجـة الضغـوط المتزايـدة لـو لم يتـم التوصـل إلى توافقـات سياسـية ومؤسسـية بشـأن هـذه القـرارات والإجـراءات الاقتصاديـة.

فرغـم التطـورات المؤكـدة التـي حققتهـا تونـس في ملـف الديمقراطيـة والحريـات السياسـية والمدنيـة فـإن عـدم قـدرة النظـام

58 - مهي يحيى، «آمال معلقة في تونس»، دراسة سابقة.

59 - نظـم الاتحـاد التونسـي للشـغل لمواجهتهـا ولمواجهـة تعثـر مفاوضـات زيـادة رواتـب موظفـي القطـاع العـام فـي 2018 إضرابـات عـدة، مـرة فـي 24 أكتوبـر ومـرة فـي 22 نوفمبـر مـن هـذا العـام وفـي يناير 2019. لمزيـد مـن المعلومـات انظـر: "تونـس: الاتحـاد العـام للشـغل يقـر إضرابًـا عامًّـا احتجاجًـا عـلى خصخصـة الشـركات العموميـة»، فرانـس 24، 21 سـبتمبر 2018، https://www.france24.com/ar/20180921-تونـس-الاتحاد-العام-الشغل-إضراب-عام-احتجاج-خصخصة-شـركات-عمومية

60 - هدى الطرابلسي، «الإفلاس يهدد القطـاع العـام فـي تونـس... فهـل تلجـأ إلـى سياسـة الخصخصة؟"، Independent Arabia، 8 مايو 2019، https://is.gd/0fSEPh

السياسي بتوجهاته اليمينية على تحقيق حد أدنى من العدالة الاجتماعية والدعم لسياساته الاقتصادية تعكر صفو عملية التحول السياسي. وهو أمر يتعلق بقاعدة الحكم التي لا تزال غير معبرة، بل وغير قادرة على التواصل مع القواعد الأوسع للمجتمع على الرغم من اتساعها النسبي بعد الثورة، في لحظة لا تستطيع فيها الأحزاب والقوى السياسية المعارضة على التواصل أيضًا مع القاعدة الأوسع من الجماهير والشباب المحتجين الذين لا يشعرون أنها تمثلهم أو تعبر عن معاناتهم الاجتماعية بقدر ما تعبر عن تطلعاتها هي السياسية أو رؤاها الفكرية أو ربما مصالحها الضيقة. وهو ما يعني أننا في تونس أمام أزمة حقيقية لغياب قنوات التواصل السياسي والاجتماعي على كافة المستويات هذا على الرغم من الانفتاح النسبي للمجال السياسي والعام. وهي معضلة لن تحل إلا إذا اتسعت قاعدة النظام بشكل يسمح بدمج نخب جديدة أكثر تمثيلًا للمحتجين، وأكثر حساسية لمطالبهم بل وأكثر قدرة على التفكير في حلول اقتصادية من خارج الصندوق.

أما في مصر، فقد صاحب ظهور اليمين إغلاقًا واضحًا لأغلب القنوات السياسية والنقابية التي يمكن من خلالها التفاوض على شكل النظام السياسي والاقتصادي أو حتى إيصال المظالم الاجتماعية والتعبير عنها. فلضمان القدرة على توطيد سلطته السياسية

وقدرته على تطبيق هذه الإجراءات الاقتصادية المؤلمة ذات الكلفة الاجتماعية الباهظة بأقل قدر ممكن من المعارضة، تم تأسيس نظام استبعادي، سعى، بجانب السيطرة على العقول عبر التحكم شبه التام في وسائل الإعلام، إلى بناء نوع من «الاستبداد القانوني» الذي تم ترسيخه من خلال سلسلة من القوانين الرامية إلى إغلاق المجال السياسي. تشمل أمثلة هذه القوانين: قانون التظاهر الذي صدر في 24 نوفمبر 2013. فقد فرض القانون سلسلة من القيود على المظاهرات السلمية والعقوبات في السجن لعدة سنوات، بالإضافة إلى إصدار قانون المنظمات غير الحكومية في 29 مايو 2017 الذي فرض قيودًا على عمل المنظمات غير الحكومية وإمكانيات تمويلها في مصر. وعلى الرغم من إجراء بعض التعديلات عليه في يوليو 2019 تلك التي حسنت منه، فإن القانون لا يزال مكبِّلًا للعمل الأهلي، وبالذات الحقوقي.[61]

وعلي نفس المنوال وعلى الصعيد النقابي أقر البرلمان في نوفمبر 2017 قانونًا جديدًا لتقنين عمل النقابات الذي وإن مثل تقدمًا عن القانون 35 لسنة 1976، فإن العديد من مواده حدَّت من

61 - Nadine Abdalla, "Egypt's New Stability: How Long Can an Exclusionary Order Be Sustained?", Frankfurt: The Peace Research Institute Frankfurt (PRIF), September 2017, https://blog.prif.org/2017/09/12/egypts-new-stability-how-long-can-an-exclusionary-order-be-sustained/?lang=en

الحرية النقابية، ولم تحقق الفاعلية التمثيلية على غرار المادة (11) التي حددت حق تكوين اللجان النقابية بحد أدنى 150 عضوًا، وهو ما يعني أن المنشآت الصغيرة في القطاع الخاص الذي يضم أغلبية العاملين في مصر[62] لن يكون لها الحق في تأسيس لجان نقابية، وتنظيم نفسه في شكل تنظيمات نقابية تدافع عن حقوقه. كما اشترطت المادة (12) من القانون ألا يُقبل إنشاء النقابات العامة بعدد أقل من 15 لجنة نقابية، تضم في عضويتها 20 ألف عامل على الأقل، وألا يقبل إنشاء اتحادات نقابية بعدد أقل من 10 نقابات عامة تضم في عضويتها 200 ألف عامل على الأقل. وهي أيضًا مادة تحد من إمكانية إنشاء النقابات العامة والاتحادات النقابية نظرًا إلى القيود التي تطرحها، وتخدم اتحاد عمال مصر الذي تسيطر عليه الدولة نظرًا إلى وجوده التاريخي الراسخ.[63] وعلى الرغم من تعديل القانون في مايو 2019 عبر تعديل المادة (11) ليصبح تواجد 50 عضوًا عددًا كافيًا لتكوين اللجنة النقابية، وعدد 10 لجان نقابية (تضم في عضويتها 15 ألف عامل) كافيًا

62 - يضم القطاع الخاص حوالي 17.5 مليون عامل من أصل 23.9 مليون عامل وفقًا لتقرير الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء في عام 2014. أيمن عبد المعطي، «الحركة العمالية المصرية...ما العمل؟»، المجتمع الديمقراطي، 22 أكتوبر 2015، http://dem-society.com/2015/10/22/الحركة-العمالية-المصرية-ما-العمل؟/

63 - نادين عبدالله، «المشهد النقابي ومستقبل النقابات العمالية في مصر»، مجلة الديمقراطية، يوليو 2018.

لإنشاء النقابة، وعدد 7 نقابات (تضم في عضويتها 150 ألف عامل) كافيًا لإنشاء الاتحاد النقابي، فإن هذه التغييرات ينقصها عنصر أساسي ألا وهو التفعيل على الأرض. فما الفائدة من تعديلات توسع الحق في التنظيم إذا كانت الإجراءات البيروقراطية والإدارية تمنع تسجيل النقابات الجديدة، وتعرقل تأسيسها؟ فالحقيقة هي أنه لم تنجح، حتى الآن، أي نقابة عامة (غير تابعة لاتحاد عمال مصر) من تسجيل نفسها باستثناء نقابة واحدة. وما الفائدة أيضًا من هذه التعديلات إذا لم تتوافر ضمانات نزاهة انتخابية تمنح العاملين حق اختيار ممثليهم؟[64]

وهذا يعني أن أغلب طرق وقنوات التواصل السياسي والنقابي قد أغلقت في ظل النظام الحالي بما فيها إمكانية اللجوء إلى الحزب الحاكم كأداة للوساطة السياسية والاجتماعية. فبينما اعتمد نظام مبارك على الحزب الحاكم (الحزب الوطني الديمقراطي) كأداة للحكم على الصعيدين الوطني والمحلي، وكذلك كقناة للوساطة مع المجتمع _سواء في المجال التشريعي مثل البرلمان أو من خلال شبكات من المحسوبية والمحسوبية في البلديات_ رفض النظام الحالي من البداية تواجد مثل هذا الوسيط.[65]

64 - نادين عبد الله، «خطوة في الاتجاه الصحيح»، المصري اليوم، 31 مايو 2019 ، https://www.almasryalyoum.com/news/details/1401451

65 - Nadine Abdalla, "Egypt's New Stability: How Long Can an Exclusionary Order Be Sustained?", September 2017, op.cit.

وفي المملكة العربية السعودية، استهلت الإجراءات التقشفية والاحتجاجات عليها بالقبض على الأمراء المحتجين. فعليًّا، اتبع النظام سياسة متناقضة تجمع بين القمع السياسي لتمرير سياساته اليمينية ذات الكلفة الاجتماعية من ناحية، والتوسع في الإجراءات الليبرالية الصورية بهدف جذب الاستثمارات الأجنبية اللازمة لتنفيذ وتمويل رؤية 2030 من ناحية أخرى. وهو الأمر الذي يدفع إلى تساؤلات حقيقية فيما يتعلق باستعداد المملكة لهذه المشاريع الضخمة سواء على الصعيد السياسي والاجتماعي، وفيما يخص إمكانية استمرار هذا النهج السياسي المتناقض. فعلى الصعيد السياسي، يحتاج بن سلمان إلى الاتجاه إلى مزيد من اللامركزية كي يستطيع اتخاد القرارات السريعة المطلوبة في المشاريع المختلفة إلا أن الأمير بن سلمان اتجه بالعكس إلى سياسات عالية المركزية ما تسبب في بطء العملية الحكومية[66]. ومن جهة أخرى، رفع بن سلمان وتيرة القمع السياسي الذي لم يتوقف على الأمراء المحتجين بل امتد أيضًا إلى أصحاب الرأي. فمثلًا أدى حادث اغتيال خاشقجي في سفارة المملكة في تركيا إلى مزيد من التردد داخل القوى والمؤسسات العالمية في التعامل مع المملكة والاستثمار فيها.

66 - "Muhammad bin Salman and the new Saudi Arabia", IISS, December 2018, vol. 24, comment 39, https://www.iiss.org/publications/strategic-comments/2018/muhammad-bin-salman-and-the-new-saudi-arabia

وعلى الصعيد الاجتماعي، بالرغم من التأييد من قبل فئة الشباب السعودي، هناك شكوك حول تلاؤم البيئة الاجتماعية الدينية المحلية مع رؤية 2030 البعيدة، على الأقل في ظاهرها، عن المذهب الوهابي ذي القيمة الاجتماعية (والسياسية) في المملكة. فقد وجد بن سلمان في تواجد المرأة في سوق العمل واحدة من الحلول التي من الممكن أن توفر للمملكة العمالة المطلوبة لجذب الاستثمار. ولكن هذا التغير الذي يطمح إلى تواجد المرأة في المساحة العامة يتعارض على الأرجح مع نظرة المشايخ في المملكة.[67]

وعلى الصعيد النقابي، تم إعمال اللجنة الوطنية للعمال، في يناير 2019، تلك التي ستضطلع بتمثيل العمال رسميًّا بعد ما يقارب 10 سنوات من مناقشة مجلس الشورى السعودي، في نوفمبر 2010 ، لقرار وزير العمل بإنشاء لجنة عمالية من شأنها تمثيل اللجان العمالية الأخرى في المملكة.[68] ووفقًا لهذا النظام ينتخب العمال في الشركات الخاصة التي يتجاوز عدد عمالها 100 عامل من 3 إلى 9 ممثلين لهم ليكونوا لجنة عمالية للشركة أو للمنشأة

67 - Stephane Lacroix,"Saudi Arabia and the Limits of Religious Reform", Religion & Diplomacy, 25 February 2019, https://religionanddiplomacy.org.uk/wp-content/uploads/2019/02/TPNRD-Lacroix-Saudi-final.pdf

68 - ريمون الكاس, «أول نقابة للعمال في السعودية يؤسسها سعوديون بينهم 3 نساء», أريبيان بزنس، 30 نوفمبر 2010، https://arabic.arabianbusiness.com/politics-economics/2010/nov/30/47534

التـي ينتمـون إليهـا، ثـم تنتخـب هـذه اللجـان ممثلـين لهـا ليكونـوا اللجنـة الوطنيـة للعـمال.[69] وعـلى الرغـم مـن صعوبـة تحديـد مـا إذا كانـت اللجنـة سـتقوم بـدور فعـال في تمثيـل العـمال نقابيًّـا والتعبـير عـن مطالبهـم والتفـاوض باسـمهم فـإن القمـع السـياسي الحـالي يعطـي مـؤشرًا بـأن الهـدف الرئيـسي مـن هـذه اللجنـة صـوري يتعلـق بإعطـاء صـورة احـترام الحقـوق العماليـة والنقابيـة. فتواجـد الحـد الأدنى منهـا أمـر لازم لجـذب رؤوس الأمـوال الأجنبيـة.

وهـذا يعنـي أننـا في الثـلاث حـالات أمـام وضعيـة مرتبكـة فيـما يتعلـق بقنـوات التفـاوض السـياسي والنقابي، تلـك التي عطلهـا اليمين في مـصر، أو تجاهلهـا في تونـس، أو اسـتغل وجودهـا صوريًّـا في السـعودية.

69 - «سـاعة فـي الاقتصـاد: إنشـاء اللجنـة الوطنيـة للجـان العماليـة», القنـاة السـعودية الإخباريـة، 22 ينايـر 2019، https://www.youtube.com/watch?v=xm-9SI0KoY0I

الخاتمة:

شـهدت الأعـوام الأخـيرة صعـودًا ملحوظًـا لليمـين عالميًّـا، كـما شـهدت المنطقـة العربيـة صعـودًا مؤكـدًا للتيـارات اليمينيـة الإسـلامية خاصـة تنظيـم الدولـة الإسـلامية (داعـش). وهـو الأمـر الـذي أدى إلى نمـو وترعـرع اليمـين في المنطقـة العربيـة بعـد 2011 خاصـة في مـصر والسـعودية وتونـس في لحظـة اجتمعـت فيهـا ليـس فقـط الظـروف العالميـة بـل أيضًـا الإقليميـة لتدعيـم وجـوده عربيًّـا. ففـي حـين وفـرت التيـارات الإسـلامية، بالفظائـع التـي ارتكبتهـا، ظرفًـا موضوعيًّـا لدعـم اليمـين داخليًّـا، جـاء العامـل الـدولي لتدعيـم سـلطته خارجيًّـا.

وعـلى الرغـم مـن أن الاحتجاجـات الاجتماعيـة كانـت في قلـب الثـورات العربيـة، وسـببًا رئيسـيًّا في اندلاعهـا في 2011، تلـك التـي عـبر وجودهـا عـن أزمـة هيكليـة ثنائيـة الأبعـاد عكسـت مـن ناحيـة، إشـكالية اتبـاع سياسـات نيوليبراليـة اقتصاديًّـا قبيـل 2011 تسـببت في ارتفـاع وتـيرة الظلـم الاجتماعـي، ومـن ناحيـة أخـرى، غيـاب قنـوات التواصـل السـياسي اللازمـة للتعبـير عـن هـذه المطالـب ومنـع تفاقمهـا (خاصـة في مـصر وتونـس) فـإن النظـم اليمينيـة التـي تولـت السـلطة في السـنوات اللاحقـة لهـذا العـام اتبعـت تقريبًـا نفـس السياسـات النيوليبراليـة التـي كانـت متبعـة مـن ذي قبـل.

والمشكلة هي أن هذه السياسات اليمينية ذات التوجهات النيوليبرالية التي تم اتباعها بعد 2011 فشلت في حل مشكلات الاقتصاد الهيكلية، وانعكاساتها الاجتماعية حتى وإن تمكنت من معالجة أزماته المالية الآنية. ومن ثم، فهي أعادت إنتاج نظم اقتصادية شبيهة بتلك المتبعة قبيل 2011، بل وأعادت إنتاج أشكال مختلفة من المحافظة السياسية كما في تونس، أو من السلطوية السياسية كما الحال في مصر أو مزجت بين السلطوية والانتفاح السياسي الصوري كما في المملكة العربية السعودية.

وهذا يعني أن الأسباب التي حركت الثورة في تونس أو مصر لا تزال كامنة. ففي تونس، رغم أن التهميش والإقصاء الاجتماعي كان السبب وراء تفجر الثورة، فلم يواكب النجاح السياسي (النسبي) في المرحلة الانتقالية نجاحًا على المستوى الاقتصادي الاجتماعي. وفي حين تتعثر النخب السياسية في تونس في إدارة عملية التفاوض الاجتماعي بشأن المصالح الاقتصادية المتناقضة بطريقة تحقق قدرًا من العدالة في التوزيع، فإن قنوات التفاوض في مصر غائبة من الأصل. وهو الأمر الذي يجعل السياسات الرامية إلى تخفيض دور الدولة الاقتصادي والمالي، في إطار أزمة اقتصادية متفجرة، محفوفة بمخاطر الانفجار الاجتماعي. وعلى الرغم من أن اختلاف الديناميات والتفاعلات في المملكة العربية السعودية فإن تناقض سياسات

الانفتاح السلطوي المتبعة في لحظة سخط اجتماعي لم تشهده السعودية من قبل تجعل من استمرار العقد الاجتماعي بصيغته القديمة أمرًا صعبًا كما تجعل في كسره تهديدًا لاستقرار المملكة.

وأخيرًا نشير إلى أن لصعود اليمين المحافظ أو اليمين الشعبوي عالميًّا بسياساته الاقتصادية المحافظة تأثيرات إشكالية على الصعيد الاجتماعي حيث نشهد صعود الاحتجاجات الاجتماعية سواء في أوروبا (حركة أصحاب السترات الصفراء في فرنسا مثلًا) أو في أمريكا اللاتينية (تشيلي مثلًا). والحقيقة هي أن للأمر جذورًا أعمق تتمثل في غياب مشروع سياسي ناجح اقتصاديًّا يصلح كبديل للمشروع اليميني، والأهم أن له قواعد قادرة على الضغط لتنفيذه. فالحقيقة هي أن الأحزاب اليسارية الديمقراطية تبنت، في أغلب الأحيان، سياسات اقتصادية نيوليبرالية (الرئيس الألماني شرودر كمثال) الأمر الذي أضعف علاقتها بقواعدها الاجتماعية الطبيعية من النقابات وغيرها. فهذه الأحزاب لم تمتلك رؤية اقتصادية مغايرة وقابلة للتطبيق بنجاح في وقت الأزمات الاقتصادية. واليوم، بالرغم من الضغوطات التي تجريها الحركات الاحتجاجية (مثل تلك سابقة الذكر) أو النقابات القوية ذات التاريخ النضالي الطويل في دول أوروبية (مثل ألمانيا وفرنسا) أو لاتينية (مثل البرازيل والأرجنتين) تظل هذه التحركات وهذه التنظيمات غير قادرة على تغيير

السياسات الاقتصادية الليبرالية أو النيوليبرالية بشكل جذري، فهي حين تنجح، تنجح فقط في إيقافها لبعض الوقت أو في التقليل من سرعتها، ولكنها حتى الآن لم تنجح في تغيير جوهرها بشكل كامل.

فهل يعني ذلك أن الطريق مغلق عالميًّا وفي المنطقة العربية أيضًا، وأن التأثيرات الاجتماعية الإشكالية للسياسات الاقتصادية اليمينية هي قدر لا محال؟ إذا كانت الإجابة بنعم في الوقت الراهن، فهي بالقطع: لا، في المستقبل القريب. فالمجتمعات الإنسانية كما عرفها التاريخ قادرة على إنتاج أشكال مختلفة وجديدة لمواجهة التحديات، والأهم صناعة البدائل السياسية والاقتصادية، ولكنها تحتاج إلى مزيد من الوقت كي تتشكل وتنضج.

2 - تأثير الشعبوية على المواطنة، وقضية اللاجئين

عبد الله العيّاش[70]

70 - باحث في علوم الاجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت، ويتمحور بحثه حول النشاط السياسي البديل في لبنان منذ 2015. وجزء من مشروع «نقض» البحثي الذي يعنى بالفكر النقدي العربي منذ أوائل القرن العشرين حتى الآن.

مـما لا شـك فيـه أن الشـعبوية وخـلال السـنوات القليلـة المنصرمـة، قـد أصبحـت ظاهـرة مثـيرة للقلـق، خاصـة بعـد الدفـع الـذي أعطاهـا إياهـا اليمـين السـياسي في الغـرب. فأصبحنـا نقـرأ يوميًّـا في الصحـف الغربيـة مقـالات عـن الشـعبوية كظاهـرة وعـن السياسـيين الشـعبويين وتصريحاتهـم. وبالمجمـل تعتمـد تلـك المقـالات والتحليـلات عـلى شـيطنة الشـعبوية، باعتبارهـا ظاهـرة خطـرة تفسـد السياسـة والأخـلاق السياسـية، أو تُناقـض الديمقراطيـة الحديثـة، أو تنتقـص مـن حقـوق الإنسـان. فبإمكانهـا أن تـؤدي إلى سياسـات لا عقلانيـة، أو إلى تعصـب إزاء الآخـر وتطـرف، وتعمـل عـلى أن تخفـي الحقائـق العلميـة وتكذبهـا، أو تحـرف نظـر المواطنـين عـن القضايـا الهامـة. لتصبـح تهمـة الشـعبوية إزاء شـخص سـياسي أو خطـاب معـين أداة لتحقـير مـا يقـال أو للتقليـل مـن قيمتـه في اللعبـة السياسـية.

يتفـق معظـم الباحثـين عـلى أن الشـعبوية مفهـوم غامـض. لكـن تحقـير الشـعبوية والقلـق الـذي ينتـج عـن هـذه الظاهـرة السياسـية ليـس بغريـب، فهـو مبنـي عـلى فهـم شـائع لهـا بأنهـا مـرض. ولعـل التحقـير عـادة، هـو محاولـة لمعالجـة مـرض غامـض. فقـد وصّـف الباحثـون في الغـرب الشـعبوية _وخاصـة شـعبوية التيـارات اليمينيـة_

على أنها مرض ينتشر في مجتمع ما بعد الحرب في الغرب، أو مرض ينتاب المجتمع الحديث. واتجه الكثيرون للقول إنها مرض يناقض الديمقراطية الليبيرالية، التي تُعرَّف على أنها عملية مؤسساتية لاتخاذ القرارات السياسية التي تمثل الخير العام، من خلال انتخاب أشخاص يعملون لتحقيق إرادة الشعب.[71] وبعضهم برَّأ الديمقراطية الغربية من آفة اليمين الشعبوي، وصنفها كظاهرة غريبة عن أسس الديمقراطية الليبيرالية، حتى ولو اعترف بأن الشعبوية تلقى مجالًا صغيرًا للعيش في هذه المجتمعات.[72] وهي بالنسبة إلى علماء السياسة في الغرب مرض يظهر في الأزمات. وعادة ما تحال هذه الأزمات إلى أزمات الحداثة المختلفة، مثل العولمة ومجتمع ما بعد الصناعة والاقتصاد ما بعد الفوردي (post-Fordist economy). أي أن هذه التفسيرات تحيل الشعبوية إلى حركة تظاهر من هم في موقع الخاسر من نظام الحداثة، الغاضبين من هذا النظام لعدم تلبية مطالبهم وتطلعاتهم، أي لعدم وفاء الحداثة بوعدها بحياة كريمة للجميع. فيسهل تحويل الغضب العائد أو الانفعال العاطفي الناتج عن تخلف الحداثة عن وعودها، إلى أيديولوجيا يمينية.[73]

71 - Cas Mudde, ed., The Populist Radical Right: A Reader, Routledge Studies in Extremism and Democracy (London; New York: Routledge, Taylor & Francis Group, 2017). p.561.
72 - Ibid., 563.
73 - Ibid., 565.

لكننا إذا أردنا أن نفهم ولربما ننقد تلك الرؤية الطاغية عن الشعبوية كمرض، علينا أن نوضح أولًا السياق التاريخي الذي نعيش فيه عالميًّا. نستطيع أن نسمي السياق التاريخي العالمي هذا، كما أطلقت عليه شانتال موف «اللحظة الشعبوية.» يتألف السياق التاريخي هذا أو «اللحظة الشعبوية»، من سياقين مختلفين ومترابطين في آن: سياسي وأيديولوجي من جهة، واقتصادي من جهة أخرى.[74] في السياق السياسي تفرق شانتال موف بين الديمقراطية والليبيرالية، اللذين تم مزجهما في الغرب في مفهوم الديمقراطية الحديثة جراء هيمنة الأيديولوجيا الليبيرالية على الحقل السياسي. فتعيد موف الديمقراطية إلى مفهومها الأساسي وهو شكل الحكم المبني على مبادئ السيادة والعدالة ورابط الهوية بين الحاكم والرعية. فإن ثورة الديمقراطية الحديثة أعادت مبدأ قديمًا ومُرسَّخًا في التاريخ، وهو أن السيادة أو القوة يجب أن تكون للشعب. وهذا يعني أن الديمقراطية تتضمن حتمًا، بالنسبة إلى موف، عملية تعريف «الشعب.»[75] أي أن الديمقراطية تتطلب كما ينظِّر كارل شميت لمبدأ السياسة عامةً، تعريف لمن هم داخل مقولة «الشعب» ومن هم خارجها. أو كما يقول شميت، من هم «أصدقاء» ومن

74 - Chantal Mouffe, For a Left Populism (London ; New York: Verso, 2018). p.25-35.

75 - Chantal Mouffe, The Democratic Paradox (London; New York: Verso, 2000). p.2-3.

هـم «أعـداء.»[76] لكـن مبـدأ الحكـم هـذا يتطلـب إطـارًا رمزيًّـا أو لغويًّـا لترجمتـه إلى الواقـع داخـل الحداثـة. وقـد تحـدَّد هـذا الإطـار الرمـزي داخـل الحداثـة بمضمـون الخطـاب الليبـيرالي، الـذي بنـي عـلى فكـرة حكـم القانـون وفصـل السـلطات واحـترام حقـوق الإنسـان والحريـة الفرديـة.[77] فتتخـذ الليبيراليـة، كـما تشـير مـوف، مبـدأ السـيادة مـن جوهـر الديمقراطيـة أساسًـا لهـا، ولكنهـا تحـدِّه داخـل أطـر عملهـا المبنيـة عـلى الحقـوق الفرديـة.[78] ويبـدو ذلـك لمـوف توتـرًا قائمًـا داخـل الديمقراطيـة الليبيراليـة، بـين مبـدأ السـيادة، والأيديولوجيـا المبنيـة عـلى تحديـد جوهـر المجتمـع كأفـراد مذرريـن.[79] أمـا شـميت فـيرى في ذلـك مـا هـو أكـثر مـن توتـر، يـرى تناقضًـا لا تسـتطيع الليبيراليـة حلـه، فتلجـأ إلى قمـع إشـكالية سـيادة الشـعب عـبر التاريـخ.[80]

لكـن ذلـك التناقـض أو التوتـر لا يُعـرِّف بالنسـبة لشـانتال مـوف كامـل السـياق التاريخـي «للحظـة الشـعبوية.» فـترى أننـا في الوقـت الراهـن، وبالأخـص بعـد انتهـاء الحـرب البـاردة، نعيـش لحظـة تسـمِّيها

76 - Carl Schmitt, The Concept of the Political, ed (Chicago: University of Chicago Press, 2007 (1932)), p.26.
77 - Mouffe, The Democratic Paradox, p.2-3.
78 - Mouffe, The Democratic Paradox, p.4
79 - Mouffe, The Democratic Paradox, p.6
80 - Carl Schmitt, Political Theology: Four Chapters on the Concept of Sovereignty, University of Chicago Press ed (Chicago: University of Chicago Press, 2005 (1922)), p.11.

لحظـة «مـا بعـد السياسـة.»[81] وهـو سـياق سـياسي محـدد تاريخيًـا، ويتخـذ شـكلًا أيديولوجيًـا معيَّنًـا يظهـر في هيمنـة القـوى السياسـية الوسـطية عـلى سـلطة الدولـة. تدَّعـي القـوى الوسـطية هـذه خروجهـا عـن ثنائيـة صراع اليسـار واليمـين عـلى السـلطة، وتعتـبره صراعًـا قـد نفـدت قوتـه عـلى تأويـل الـصراع السـياسي. فبالحجـة الخاطئـة هـذه يدَّعـي الوسـطيون قدرتهـم عـلى الوفـاء بوعـود الحداثـة مـن خـارج الـصراع السـياسي. وبالحقيقـة، فـإن مقولـة انتهـاء الـصراع السـياسي، هـي الأيديولوجيـا النيوليبراليـة التـي تعمـل عـلى إبعـاد الدولـة عـن دورهـا في تحديـد وتحقيـق «العدالـة» الاقتصاديـة خدمـة لزيـادة ربحيـة رأس المـال. فيكـون الوسـطيون بذلـك في السـلطة أداة لتنفيـذ الأجنـدة الاقتصاديـة النيوليبيراليـة. والوعـود التـي يزعـم الوسـطيون أن باسـتطاعتهم تأمينهـا ليسـت إلَّا وعـود النيوليبيراليـة بحيـاة كريمـة تتحـدد بديمومـة قـدرة الفـرد عـلى الاسـتهلاك مـن خـلال اسـتدامة مقدرتـه عـلى الاسـتدانة.

أتـت النيوليبيراليـة في سـبعينيات القـرن المـاضي كمخـرج لأزمـة رأس المـال التـي أخـذت شـكل الركـود التضخمـي (stagflation) الـذي عانـت منـه دول العـالم الأول. فـكان الحـل الأنسـب أمـام رأس المـال العالمـي التحـول مـن نمط إنتـاج لفائـض القيمـة (surplus value) يتركز

81 - Mouffe, For a Left Populism, p.21.

في الإنتاج الصناعي للسلع، إلى رأس مال مالي ينتج القيمة من سلع مالية (financial commodities). فانتقلت السياسات الاقتصادية إلى الدول الغربية من سياسات كينزية توجب الدولة على تقديم شبكة من الرعاية الاجتماعية، إلى سياسات نيوليبيرالية تتحرر فيها الأسواق المالية والصناعية والتجارية داخليًّا وخارجيًّا. وتعتمد هذه السياسات تخفيف الاستثمار العام والضرائب، وتضخم الدين العام والخاص. لتبتعد الدولة بذلك عن واجبها في الرعاية الاجتماعية، أي لتفرض سياسات التقشف بحجة أولوية النمو الاقتصادي على مشاريع الرعاية الأخرى. فتكون تلك السياسات النيوليبيرالية ليست إلا تحفيزًا لقدرة رأس المال المالي على إعادة إنتاج فائض القيمة من السلع المالية، أي على هيمنته كنمط إنتاج وتضخم قيمته مقابل القطاعات الأخرى.

أصبحت الدولة ضمن النيوليبيرالية جهازًا لرأس المال المالي يحفز الاستثمارات الخاصة أولًا، من خلال خصخصة المنشآت العامة وتسهيل حركة رأس المال المالي. وتجدر الإشارة إلى أن النيوليبيرالية، على عكس سابقاتها، هي سياسات فُرضت على دول العالم الثالث أولًا، في سبعينيات القرن الماضي، وترسخت في دول العالم الأول في ثمانينيات القرن نفسه. فاستطاعت النيوليبيرالية تحويل المواطنين إلى مستهلكين يؤمِّنون معيشتهم من خلال الاستدانة، ورسَّخت بذلك

مجتمع استهلاك السلع. ولا تقتصر النيوليبيرالية على السياسات الاقتصادية وحدها، فهي كما أشارت وندي براون، منطق سياسي يحدد غاية الفرد وطبيعته. تشير وندي براون إلى أن النيوليبيرالية تعرِّف جوهر الإنسان على أنه الإنسان الاقتصادوي (homo economicus). وذلك نقيض لتعريفات الإنسان الأخرى، مثل: الإنسان السياسي، وهو الذات التي لها قوة السيادة السياسية من خلال المجموعة.82 فيتحول المواطنون إلى مجرد ذوات مذررة قادرة على الاستهلاك فقط، ويضعف حجم مشاركتهم في الممارسة السياسية لحصرها في انتخابات موسمية. أدت سياسات النيوليبيرالية ومنطقها إلى شرخ بين السلطات السياسية والمواطنين، أصبحت فيها السلطات بعيدة عن الاستجابة لمطالب المواطنين الحياتية، فتفاقمت أزمة انعدام التمثيل السياسي وبالتالي أدت إلى أزمة شرعية الدولة.

بسبب الشرخ هذا بين الدولة ودورها في تأمين التمثيل السياسي، ومطالب المواطن المعيشية غير المحققة، تأتي الشعبوية إعلانًا لمحاولة ردم لتلك الفجوة. وعادة ما تظهر تلك التيارات الشعبوية في لحظات تأجج أزمات النيوليبرالية. لكن ليست كل الحركات الشعبوية متماثلة، ولا تعمل جميعها على معالجة المشكلة التي أججتها النيوليبرالية، كما لا تعمل جميعها على إعادة إنتاج النيوليبرالية. حتى ولو كانت الشعبوية الطاغية في أوروبا الغربية

82 - Wendy Brown, Undoing the Demos: Neoliberalism's Stealth Revolution, First Edition (New York: Zone Books, 2015), p.41.

وأمـيركا الشـمالية هـي تمظهـر لمشـكلة اليمـين الشـعبوي، لكن إشـكالية الشـعبوية لا تقتـصر عـلى اليمـين فقـط. فالشـعبوية في أمـيركا اللاتينيـة وبعـض الـدول الأوروبيـة مثـلًا تتخـذ مضمونًـا يسـاريًّا. ويُنسـب ظهـور هـذه الشـعبوية اليسـارية في أمـيركا اللاتينيـة مثـلًا، إلى أسـباب بنيويـة لهـا علاقـة بتخلـف التطـور وتبعيـة الاقتصـاد والنـزوح مـن الريـف إلى المدينـة في تلـك البـلاد. مـن خصائـص الأحـزاب الشـعبوية في تلـك البـلاد أنهـا تشـمل مختلـف الطبقـات، تناهـض الوضـع القائـم، ترفـض سياسـات التقشـف، وتطالـب باقتصـاد إنتاجـي بـدلًا مـن الاعتـماد عـلى اسـتيراد البضائـع.[83] كـما أنهـا عـلى عكـس الشـعبوية اليمينيـة العنصرية التـي تسـتثني فئـة مـن النـاس، تتخـذ الشـعبوية اليسـارية طابعًـا أشـمل يتضمـن جميـع الفئـات المهمشـة. فتعـادي تلـك الشـعبوية اليسـارية، الأوليغارشـية الحاكمـة التـي هـي نتـاج النيوليبراليـة وتنتـج في خطابهـا تناقضًـا بـين «الشـعب» و»الأوليغارشـية.» فتوصـف هـذه التيـارات عـلى أنهـا تحفيـز للديمقراطيـة الحقيقيـة _أي عـلى تمثيـل أكثريـة الشـعب_ عـلى عكـس تمثيـل القلـة القليلـة التـي تتشـكل مـن الأوليغارشـية.[84]

83 - Hawkins, K A and Rovira Kaltwasser, C. The Ideational Approach to Populism. Latin American Research Review. 2017; 52(4), pp. 513-528. DOI: https://doi.org/10.25222/larr.85, 515.

84 - Yannis Stavrakakis & Giorgos Katsambekis (2014) Left-wing populism in the European periphery: the case of SYRIZA, Journal of Political Ideologies, 19:2, 119-142, DOI:10.1080/13569317.2014.909266

معالجات مختلفة للشعبوية في العالم العربي

إن المعالجات المختلفة لإشكالية الشعبوية جميعها تفترض مسبقًا أنها مشكلة محددة في المجتمعات الديمقراطية. فهل تكون الشعبوية إشكالية صحيحة في مجتمعنا العربي؟ أي في دول بأكثريتها غير ديمقراطية ويتخذ الاستبداد والتوتاليتارية فيها أشكالًا مختلفة. وهل هي إشكالية جديدة على هذا العالم خاصة بعد أن حاولت ثورات الربيع العربي فتح مجال لتحقيق الديمقراطية؟ ولذا، هل تكون أسباب الشعبوية وآثارها مستجدة على العالم العربي؟ أم أن الشعبوية مشكلة غير قائمة في البلدان العربية أصلًا، والمشكلة الحقيقية هي الأنظمة غير الديمقراطية؟ وهل من الممكن أن تكون الشعبوية على صلة وثيقة مع الأنظمة الديكتاتورية وهي إحدى أدوات الاستبداد، ما يجعلها إشكالية متزامنة مع دول الاستقلال العربي؟

لم تحظَ الشعبوية باهتمام المحللين في العالم العربي حتى السنوات القليلة الماضية. وذلك بسبب صعود تيارات اليمين المتطرف بأوروبا، وخاصة بعد أزمة النزوح من البلدان العربية إلى أوروبا. على سبيل المثال، تعالج الكاتبة منى خويص إشكالية الشعبوية في العالم العربي، في كتابها «رجال الشرفات: دراسة تحليلية للظاهرة الشعبوية» الذي صدر عام 2012. تتفق الكاتبة

مـع فكـرة الشـعبوية كمـرض يجـب معالجتـه. وتحاجـج بـأن سـبب فشـل معالجتـه حتـى الآن هـو عـدم وجـود مفهـوم واضـح للشـعبوية «يؤيـد إدانتهـا» كـما فعلـت الـدول الغربيـة مـع الفاشـية.[85] تطـرح الكاتبـة الشـعبوية عـلى أنهـا «أعـلى مراحـل الشـمولية» ومظهـر للانقيـاد الأعمـى وراء القائـد الـذي يدعـي قيـادة روح الشـعب. لكـن الشـعبوية عـلى عكـس الفاشـية، بالنسـبة إلى الكاتبـة، لا تقـدم أيـة أفـكار جديـدة بـل تلتـزم بشـعارات قديمـة لا وظيفـة لهـا إلا الانقيـاد الشـعبي. فتكـون بذلـك انحرافًـا عـن مسـار التطـور الخطِّـي للحضـارة الإنسـانية.[86] وتدعـي الكاتبـة أن الديمقراطيـة الليبيراليـة وحكـم القانون فيهـا يمنـع نشـوب هكـذا ظاهـرة. فبالنسـبة إليهـا تتجـلى الشـعبوية كثقافـة وسـلوك اجتماعـي في مجتمعـات دول العـالم الثالـث التـي «لم تطـرق الحداثـة بابهـا»، حيـث يطغـى «التخلـف والجهـل وغيـاب الفكـر العقـلاني.»[87]

بغـض النظـر عـن الاسـتشراق الـذاتي الـذي تمارسـه الكاتبـة في تحليلهـا، فهـي لا تجيبنـا عـن سـبب اسـتمرار ظهـور الشـعبوية حتـى في الـدول الديمقراطيـة الليبيراليـة إلا بحجـة عـدم وجـود مفهـوم يديـن الشـعبوية. لكـن إذا كنـا نريـد أن نكـون عقلانيـين (-rational

85 - منـى خويـص، «رجـال الشـرفات: دراسـة تحليليـة للظاهـرة الشـعبوية»، دار الفارابـي، ٢٠١٢. ص.١٣.

86 - المصدر نفسه، ص ١٥ – ٢٠.

87 - المصدر نفسه، ص ٢٨.

ists) بحـق، فـإن كل ظاهـرة موجـودة لهـا أسـبابها، وأسـبابها تحتِّـم وجـوب وجودهـا. وإذ أردنـا أن نتبـع نمـط تحليـل مـادي، فـإن أسـباب وجـود كل فكـرة هـي العلاقـات الماديـة التـي تتيـح وجودهـا في الفكـر. فكيـف لظاهـرة تعـود كل فـترة حتـى في الـدول الليبراليـة الديمقراطيـة؟ مـا يعنـي أن إنتـاج المفاهيـم بغيـة إدانـة ظاهـرة مثـل الشـعبوية لـن يحـل أي أزمـة، وأقـصى إمكانياتـه هـو كبتهـا بشـكل سـطحي، أي إخفاؤهـا. لكـن واجـب إنتـاج المفاهيـم الدقيقـة هـو واجـب صحيـح، ووظيفتـه فهـم العلاقـات الماديـة التـي تتيـح المجـال لوجـود الفكـرة. فيتمكـن المجتمـع مـن التغلـب عـلى تلـك العلاقـات لتنتهـي الظاهـرة بانتفـاء أسـباب وجودهـا.

في نمـط تحليـل متبايـن عـن منـى خويـص، يطـرح وسـام سـعادة نظـرة للشـعبوية أقـرب إلى تحليـل شـانتال مـوف. حيـث يشـير سـعادة إلى الشـعبوية باعتبارهـا "تجسـيد عضـوي للشـعب في حُلَّـة الزعيـم."[88] وذلـك التجسـيد لإرادة الشـعب ضروري لأن الشـعب في الشـعبوية، حسـب سـعادة: "سـلطة فـوق السـلطات" و"إرادة فـوق المؤسسـات وفـوق التمأسـس."[89] ويقـول لنـا سـعادة إن الشـعبوية دائمًـا بحاجـة إلى "رسـم الحـدود" بـين الشـعب وأعـداء الشـعب الذيـن هـم مـن

88 - وسـام سـعادة: "سـقوط الزعيـم... مـن معجـم الشـعبوية." القـدس العربـي، ٢٢ سـبتمبر ٢٠١٩.

89 - المصدر نفسه.

ضمـن الشـعب.[90] فيخلـق أعـداء للشـعب، ليسـاعده ذلـك عـلى قمـع المعارضـة السياسـية الرئيسـية.

وبمـا أن إرادة الشـعب المتجسـدة بالقيـادة هـي فـوق سـلطة المؤسسـات والتمأسـس، فيصبـح لهـا الحـق مثـلا في تعليـق العمـل بالدسـتور بشـكل مؤقَّـت وإعطـاء سـلطة إصـدار إعلانـات دسـتورية لأحـد السـلطات المتحالفـة معـه، وذلـك يعنـي إعـلان عـن سـيادة فـوق سـيادة القانـون، وهـي السـيادة التـي تسـتطيع أن تعلِّـق العمـل بالقانـون متـى شـاءت. فنسـتعين هنـا بـكارل شـميت الـذي نظَّـر للسـيادة عـلى أنهـا لا تتجسـد بحكـم القانـون ومؤسسـاتها كـما يزعـم الليبيراليـون. لكـن السـيادة بالحقيقـة تتجسـد بمـن لـه صلاحيـة إيقـاف العمـل بالقانـون، أي بإعـلان الحالـة الاسـتثنائية، أو بعبـارة أخـرى "حالـة الطـوارئ."[91] فحكـم القانـون حتـى في الـدول الليبيراليـة، بالنسـبة إلى شـميت لا يبنـى عـلى العـرف بـل عـلى سـلطة القـرار، أي القـرار الـذي يحـدِّد الاسـتثناء. فتكـون سـلطة القـرار بتحديـد الاسـتثناء هـي إشـكالية السـيادة الحقيقيـة، وهـي أرضيـة القانـون التـي يقـوم عليهـا، ولكنـه يقـف عاجـزًا عـن قوننـة السـيادة ضمـن المؤسسـات الليبيراليـة.[92]

90 - المصدر نفسه.

91 - Schmitt, Political Theology, p. 1-9.

92 - Ibid., p.11-13.

وفي هـذا أمـر مهـم حيـث نسـتطيع القـول إن مـا أدت إليـه السياسـة الشـعبوية هـو أكـثر مـن عنـف وقمـع للحريـات وحقـوق المواطنـة، إذ تتعـدى الشـعبوية مسـألة الاسـتثناء بـل وتكـرَّس عرفًـا أو وضعًـا طبيعيًّـا يوجـد تراتبًـا هرميًّـا بـين المواطنـين، بـين مـن هـم مواطنـون عاديـون مفـترض أنهـم يتمتعـون بحقوقهـم، ومـن هـم مواطنـون إرهابيـون/ أو أعـداء الشـعب ولا يحـق لهم ما يحـق لغيرهم. مـا يعنـي التشريـع القانـوني لنـوع مـن الطبقيـة بـين المواطنـين، وهـي بخـلاف الطبقيـة الماديـة المكبوتـة أو الصامتـة في الدسـاتير الليبيراليـة بحجـة أن كل المواطنـين سواسـية أمـام القانـون. لكـن أعـمال قمـع الحريـات لا تصـل إلى ذروتهـا في تلـك الحالـة، حيـث لا تقتـصر عـلى قمـع "أعـداء الشـعب" لتبـدأ في مرحلـة لاحقـة القمـع لأي معارضـة قائمـة أو محتملـة. [93]

ما هي الشعبوية

لا شـك بـأن نظامًـا عديـدة في المنطقـة اسـتبدادية، ولا شـك أنهـا تسـتخدم خطـاب الشـعبوي ليـبرر الاسـتبداد، أي الانتقـاص مـن حقـوق المواطنـة. ولكـن يبقـى السـؤال هـل الشـعبوية عِلـة وجـود الاسـتبداد، أو هـي دالـة عليـه، أو أثـره؟ إن أردنـا أن نـدرس آثـار الشـعبوية عـلى

93 - لـؤي المدهـون، "الديمقراطيـة فـي مصـر .....حلـم بعيـد المنـال"، دويتشـه فيلـه/ قنطـرة،
https://ar.qantara.de/content/ntkhbt-msr-lrysy-2014-ldymqr-ty-fy-msr-lsysyhlm-byd-lmnl

الديمقراطيـة أو المواطنـة أو عـلى قضيـة اللاجئـين، فعلينـا أن نحـدد تعريفنـا لمفهـوم الشـعبوية. فكيـف نحيـل أثـرًا اجتماعيًّـا إلى سـبب مـا، إن لم نكـن نسـتطيع تعريـف ذلـك السـبب؟ فكيـف نقـول إن انعـدام مشـاركة المواطنـين في الحيـاة السياسـية، أو الكـره تجـاه الآخـر، أو الديكتاتوريـة، سـببه الشـعبوية؟ لمـاذا لا تكـون سـبب الظاهـرة الأولى النيوليبيراليـة، والثانيـة الأيديولوجيـا اليمينيـة، والثالثـة قـوة الحكـم العسـكري؟ مـا هـي الخصائـص التـي تجعـل مـن الشـعبوية قـادرة عـلى أن تكـون سـببًا لآثـار اجتماعيـة مختلفـة؟ أجـادل في هـذا النـص، إننـا إذا اسـتطعنا تحديـد تعريـف الشـعبوية فسـنرى أن آثارهـا الاجتماعيـة التـي تتخطاهـا بالطبـع، موجـودة داخلهـا. أي أن تكويـن مفهـوم للشـعبوية يمكِّننـا مـن فهـم آثارهـا الاجتماعيـة تلقائيًّـا. أي أن تكويـن مفهـوم للشـعبوية يمكِّننـا مـن فهـم آثارهـا الاجتماعيـة تلقائيًّـا.

عـادةً، تُـدرس الشـعبوية مـن خـلال ثلاثـة أنمـاط تحليليـة، إمـا من منظـور اقتصـادي يعنـى بصـواب السياسـات الاقتصاديـة، وإمـا سـياسي يـرى في الشـعبوية حركـة مناهضـة للوضـع القائـم، وإمـا كمنطـق خطـاب يفهـم الشـعبوية بأنهـا مناهضـة لمؤسسـات الدولـة.[94] كـما أن الشـعبوية تُـدرس إمـا عـلى مسـتوى نظـري أو تجريبـي. عـلى المسـتوى

94 - Hawkins, K A and Rovira Kaltwasser, C. The Ideational Approach to Populism. Latin American Research Review. 2017; 52(4), pp. 513-528. DOI: https://doi.org/10.25222/larr.85, 515.

النظـري يمحِّـص الباحـث الأسـباب والآثـار النظريـة، إمـا ليبتكـر مفهومًا أو يعطـي تعليـلًا وظيفيًّـا للشـعبوية. أمـا عـلى المسـتوى التجريبـي، فينطلـق الكاتـب مـن رصـد مختلـف التجـارب والحـالات التـي تُطلـق عليهـا صفـة الشـعبوية، كي يقـارن بينهـم ويسـتخرج التماثـل الـذي يمكِّنـه مـن اسـتنتاج المفهـوم مـن خـلال عمليـة اسـتدلال اسـتقرائي.

في كتـاب «مـا هـي الشـعبوية» الـذي صـدر عـام 2016، يعالـج يان فيرنـر مولـر إشـكالية الشـعبوية مـن منطلـق تجريبـي ولكنه مسـتوحًى مـن التحليـلات النظريـة المختلفـة. لا يخفـي مولر أنـه يعالج الشـعبوية مـن موقـع الخصـم، وهـو بالنسـبة إليـه موقـع الديمقراطيـة الليبيراليـة. أي أنـه يعتـبر الشـعبوية خطـرًا عـلى الديمقراطيـة الليبيراليـة ولكنـه لا يـرضى بالتفسـيرات التـي تقف عنـد احتقـار الشـعبوية أو اعتبارها حالة مرضيـة. يعـرِّف مولـر الشـعبوية عـلى أنهـا نظـرة أخلاقويـة يتخيـل مـن خلالهـا الفـرد العـالم السـياسي، كـما أن الشـعبوية تتضمـن بالـضرورة ادِّعـاء بحصريـة شرعيـة التمثيـل الأخلاقـي للشـعب.[95] تحـدِّد التيـارات الشـعبوية، بالنسـبة لمولـر، مـن هـم داخـل وخـارج «الشـعب» عـلى أسـاس أخلاقـوي لتدَّعـي حصريـة التمثيـل.[96] ويلاحـظ الكاتـب عـدَّة تناقضـات بـين ادعـاءات التيـارات الشـعبوية وأفعالهـا. يشـير مثـلًا

95 - Jan-Werner Müller, What Is Populism? (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2016), p.68
96 - Ibid., p.86.

إلى أن التيـارات الشـعبوية تزعـم مناهضـة النخبـة الحاكمـة لكـن عنـد وصولهـا إلى السـلطة، «تسـتعمر» مؤسسـات الدولـة مـن خـلال توظيـف جماعاتهـا داخـل تلـك المؤسسـات. وتدعـي أنَّهـا تعطـي صوتًـا سياسـيًّا للنـاس، لكـن ممارسـاتها السياسـية هـي اسـتبدادية. كـما أنهـا تدَّعـي محاربـة فسـاد النخبـة الحاكمـة، لكنهـا تعـزِّز نظـام الزبائنيـة خاصـة في توظيفـات المؤسسـات العامـة. فهـي تزعـم أنهـا تحـارب الإقصـاء الـذي تنتجـه النخبـة الحاكمـة، لكنهـا تمـارس الإقصـاء نفسـه. وأخـيرًا، فـإن التيـارات الشـعبوية تدَّعـي بسياسـتها الأخلاقويـة بأنَّهـا تريـد تمثيـلًا مبـاشرًا دون وسـيط «للشـعب،» ولكنهـم يبتكـرون رمـوزًا أخلاقويـة يمثلـون الشـعب مـن خلالهـا.[97] يـرى مولـر أخـيرًا أن التيـارات الشـعبوية تقـوى في بـلاد تضعـف فيهـا الأحـزاب السياسـية، بمـا أن الأحـزاب مـن أعمـدة الديمقراطيـة. ولذلـك فـإن التيـارات الشـعبوية عـلى مختلـف أيديولوجياتهـا، يمينًـا ويسـارًا، تناقـض الديمقراطيـة دون أن تدمرهـا. فيسـتنتج مولـر، مـن موقـع الليبـيرالي الديمقراطـي، أن عـلى الأحـزاب الديمقراطيـة الليبيراليـة أن تحـاور التيـارات الشـعبوية دون أن تقصيهـم، كي لا تدَّعـي هـي الأخـرى حصريـة تمثيـل الشـعب.[98]

حتـى ولـو كان مولـر يـسرد لنـا آثـارًا متفرقـة ومختلفـة للشـعبوية مـن خـلال بحثـه التجريبـي، فهـو لا يجيبنـا بشـكل كامـل عـن سـؤال:

97 - Ibid., 77-86.
98 - Ibid., 136.

لماذا تكون تلك الآثار من وظائفه الشعبوية؟ فهل كل نظرة أخلاقوية للعالم السياسي هي شعبوية؟ فهل تكون تيارات الإسلام السياسي على مدى التاريخ المعاصر والقديم، هي تيارات شعبوية؟ لكن إذا كانت الشعبوية، كما يؤكد مولر، حصرية التمثيل الأخلاقوي لإرادة الشعب، ألا تكون تلك الظاهرة متزامنة مع عصر الحداثة حيث أصبح الشعب مصدر السلطات؟ وإن كانت الشعبوية احتكار تمثيل الإرادة، ألا تكون متطابقة مع احتكار الحاكم تمثيل إرادة الله في العصور القديمة؟ وما هي خصوصية الشعبوية التي تفرِّقها عن استبداد الحكَّام تاريخيًّا الذي يؤدي دومًا إلى علاقات زبائنية و»استعمار» المؤسسات؟ وإذا كانت الشعبوية دومًا في معاداة النخبة، أتكون كل تظاهرات العامِّيات أو التظاهرات الشعبية، هي تظاهرات شعبوية؟ وأخيرًا، يبقى النقد الذي يقدمه مولر إلى الشعبوية، التي يعرِّفها كنظرة سياسية أخلاقية، نقدًا أخلاقيًّا. أي أنه يتفحص تناقضات الشعبوية بين أقوالها وأفعالها، وكأنها حركة منافقة، تفعل عكس ما تقول. فيبقى نقد مولر، مع أنه يقدم لنا بحثًا مهمًّا لحالات الشعبوية المختلفة، نقدًا غير كافٍ لينتج لنا مفهومًا كاملًا عن الشعبوية نستطيع من خلاله تحديد آثارها.

على المقلب الآخر يتخذ إيرنيستو لاكلاو من الشعبوية ظاهرة إيجابية تحفِّز الديمقراطية بدلًا من أن تنقضها. ينقض لاكلاو في كتابه

«عـن الشـعبوية»، فكـرة توصيـف الشـعبوية كمـرض يناهـض العقلانية الليبيراليــة. ففكــرة أن الشــعبوية مــرض يناقــض العقلانيــة الفرديــة الليبيراليــة يــأتي أصلهــا مــن محــاولات التفســير الأولى لســيكولوجيا المجموعـات، وأشـهرها كتاب جوسـتاف لوبـون «سـيكولوجيا الجماهير» الـذي صـدر عـام 1895. ينظـر لوبـون إلى سـيكولوجيا الجماهـير كمرض يكبـت العقـل الفـردي ويمنعـه مـن التفكـير. وكأن العقـل الجماعـي يعـود إلى رغبـات أوَّليـة أو بدائيـة، تنكـر عـلى الفـرد قابليـة وجـوده في الجماعـة فلذلـك تنشـأ ضرورة حمايـة الفـرد مـن قبـل الدولـة. وبمـا أن السـيكولوجيا الجماعيـة تقمـع العقلانيـة الفرديـة، يسـهل التماهـي مـع القائـد الـذي مـن خـلال أدائـه واسـتخدام أدوات لغويـة تسـتطيع إثـارة المشـاعر الجماعيـة التـي تتنقـل سريعًـا بـين الجمـوع كالعـدوى. تبنـى تلـك الأدوات اللغويـة بالنسـبة إلى لوبـون عـلى مبـدأ أن بعـض الكلـمات لهـا قـوة اسـتحضار الصـور في الخيـال. ولتلـك الصـور قـوة تأجيـج المشـاعر التـي لا تسـتطيع العقلانيـة محاربتهـا. فمـن خـلال تكـرار وتوكيـد تلـك الكلـمات والعبـارات يثـير الزعيـم المشـاعر التـي تنتـشر كالعـدوى بـين الجماهـير، فيحتِّـم عـلى الجماهـير التماهـي مـع الزعيـم.[99]

99 - Ernesto Laclau, On Populist Reason (London ; New York: Verso, 2005). p.22-24

أمـا سـيغموند فرويـد في نصِّـه «سـيكولوجية المجموعـة» عـام 1921، الـذي يبنـي عليهـا لاكلاو نظريتـه عـن الشـعبوية، فينقـض فكـرة اتخـاذ إشـكالية تشـكّل الجماعـة كمـرض خـاص، أو فكـرة أن الجماعـة هـي دومًـا عـودة إلى نـوع مـن البدائيـة أو قمـع للفرديـة. عـلى العكـس يـرى فرويـد تماثـلًا في عمليـة تشـكّل اللاوعـي الفـردي واللاوعـي الجماعـي. ويكـون بذلـك موضـوع سـيكولوجية الفـرد هـو موضـوع سـيكولوجية الجماعـة، وهـو هـو موضـوع دراسـة التحليـل النفـسي، أي اللاوعـي. وأن إشـكالية تشـكّل الجماعـة ليسـت عـودة إلى بدائيـة تناقـض العقلانيـة، لكنهـا إشـكالية تماهـي الـذات مـع الآخـر، فـردًا كان أو مجموعـة، فهـي إشـكالية الحـب ذاتهـا. يطـرح فرويـد أن الأنـا (ego) ليـس بـشيء «موجـب» (إيجـابي) بحـد ذاتـه، لكنـه مـكان الـصراع الاجتماعـي في اللاوعـي. ويـشرح أن الـذات تخلـق لنفسـها دومًـا موضـوع الحـب (object of love) ليتكـون منهـا الأنا-المثاليـة (ego-ideal)، أي الأنـا التـي يتـم اجتيافهـا (introjection) مـن قبـل الـذات.[100] أي أن الأنا-المثاليـة هـي الأنـا التـي يحبهـا، الفـرد أو الجماعة، أن تكـون هـي المحـدّق بـه، أي تلقـي أحكامهـا عليـه. فيكـون للطفـل

100 - الاجتيـاف كلمـة مشـتقة مـن فعـل جـاف: أي إدخـال شـيء إلـى الجـوف، أي الباطـن. والاجتيـاف (علـى وزن انفعـال) عمليـة إدخـال خصائـص معينـة تشـكّل مثـالًا للفـرد أو المجوعـة، يتـم إدخالهـا مجازيًـا إلـى الجوف/الباطـن لتكـون تلـك الخصائـص المركبّـة ككل هـي مـن يحكـم علـى الـذات. راجـع، ديـلان إيفانـس، «معجـم تمهيـدي لنظريـة التحليـل النفسـي اللاكانيـة،» ترجمـة د. هشـام روحانـا، 2017، ص.43 - 44.

مثـلًا الأنا-المثاليـة هـو الأب لأنـه يمثـل رغبـة الأم، فيحـاول الطفـل التماهـي مـع صـورة الأب.[101] لكـن الطفـل يعـي في لحظـة معينـة فشـل ذلـك التماهـي، فتنكـسر تلـك الوحـدة مـع الأنا-المثاليـة، وتتجـلى لحظـة القلـق. وهكـذا تكـون المجموعـات أيضًـا، يتشـارك فيهـا الأفـراد موضـوع حـب (محبـوب) واحـد، أي أنهـم يتحـدون في التماهـي مـع أنا-مثاليـة واحـدة، فتقـوم وحـدة المجموعـة.[102] ولحظـة تجـلي القلـق عنـد الفـرد أو الجماعـة، وهـي لحظـة التظاهـر الشـعبوي مثـلًا، هـي لحظـة فشـل هـذا التماهـي. أي أنهـا لحظـة إدراك فشـل التماهـي مـا يزعـزع الوحـدة، فيعـم القلـق في البحـث عـن موضـوع حـب جديـد للتماهـي معـه.

مـن المهـم أن نشـير إلى أن تلـك العمليـة سـيطورها جـاك لاكان لتكـون عمليـة داخـل الفضـاء الرمـزي. فبالنسـبة إلى لاكان فـإن اللاوعي يتشـكل مـن بنيـة تتطابـق مـع بنيـة اللغـة ومركَّبـة مـن ثلاثـة عنـاصر: الخيـالي، الرمـزي، والواقعـي. فتتطـور فكـرة التماهـي عنـد لاكان مـن كونهـا تماهيًـا مـع الأب الحقيقـي إلى تمـاهٍ مـع اسـم الأب عـلى المسـتوى الرمـزي، أو رمـز الأبـوة، أو قـل السـيد (Master). ويصبح هـذا التماهي هـو تمـاه محصـور في عـالم الرمـوز. ونقـول ذلـك لنشـير إلى فارقـين:

101 - Slavoj Žižek, The Sublime Object of Ideology, The Essential Žižek (London: Verso, 2008 (1989)), p.114-117

102 - Sigmund Freud, Group Psychology and the Analysis of the Ego. (Hogarth Press and the Institute of Psycho-analysis, 1949 (1922)).p.80

الأول هـو أن التماهـي الرمـزي عنـد لاكان يصبـح مربوطًـا باللغـة، أي هـو تمـاهٍ مـع دالٍّ (signifier) معـين يشـير إلى السـيد، أو يتحكـم بـه السـيد، فيسـمى الـدال السـيد (Master signifier).[103] ويصبـح الـدال السـيد هـذا هـو المؤسـس لهويـة الفـرد أو الجماعـة. والفـارق الثـاني أن لاكان يسـتحدث في نصـه «مرحلـة المـرآة» عـام 1936، مرحلـة أخـرى مـن التماهـي وهـي التماهـي الخيـالي للطفـل الـذي لم يدخـل عـالم اللغـة، أي لم يخلـق بعـد آخـر رمـزي. يشـعر الطفـل في تلـك المرحلـة أن جسـده متجـزِّئ لا يسـتطيع التحكـم بـه والتغلُّـب عليـه كامـلًا. لكنـه في المقابـل يـرى وحـدة جسـده في المـرآة، فيخلـق هـذا توتـرًا بـين الجسـد المتجـزِّئ ووحدتـه الصوريـة في الخيـال. ولـكي يتغلـب الطفـل عـلى ذلـك التوتـر يخلـق لنفسـه مثال-الأنـا (ideal-ego) في المسـتوى الخيـالي، أي الأنـا الـذي يحـب أن يكونهـا أو يسـعى ليكونهـا. وهـو الأنـا الـذي يحـب الطفـل أن يـراه الآخـر عـلى شـاكلتها.[104] فيتماهـى الطفـل في الخيـال مـع صـورة الوحـدة، أي مـع وحدتـه الصوريـة، مـن خـلال عمليـة إسـقاط (projection) لمثال-الأنـا التـي يحـب أن يكونهـا. ذلـك يعنـي أن مـا يتـم إسـقاطه ليـس بـشيء «موجـب» (إيجـابي)، أي موجـود مسـبقًا كأنـا ذي خصائـص معينـة، لكنّه شيء «سـالب» (سـلبي)

103 - Zizek, Sublime Object of Ideology, p.112.

104 - Lacan, Jacques. "The Mirror Stage as Formative of the Function of the I as Revealed in Psychoanalytic Experience 1." Reading French Psychoanalysis. Routledge, 2014. 97-104.

بالتحديد وهو النقصان (lack). لكن عملية إسقاط النقصان تتم من خلال الآخر الخيالي، مثال-الأنا، الذي يتعرَّف (recognize) الفرد من خلاله على نفسه. أي أن النقصان يتحول إلى مضمون «إيجابي» عندما يتعرف الجسد المجزَّأ في الواقع على نفسه كوحدة خيالية. فينقلب السلبي في الواقع إلى شيء إيجابي في الخيال. لذلك تكون عملية إدراك الأنا لنفسها من خلال مثال-الأنا هي بالأحرى عملية إدراك مشوَّه (misrecognition).[105] وتكون الذات ليست واحدة في أساسها بل ذاتًا مشطورة، أو مفصومة، بين مثال-الأنا والأنا-المثالية، تبدأ دائمًا مع تحويل «السالب» أو النقصان في الواقع إلى «موجب» في عالم الخيال أو الرموز. و«السالب» أو النقصان هو دائمًا ما هو موجود في الواقع ولا يعبِّر عنه كما هو. فتكون عملية التماهي على مستويي الخيال والرموز هي تكرار محاولة الذات للوحدة مع نفسها أو التغلب على انشطارها الأساسي. وتكون عملية التماهي هي محاولة للوحدة تظهر فيها الخصائص «الموجبة» للفرد أو المجموعة، لكنها تبقى في الوقت عينه كبتًا للسالب أو النقصان الموجود على مستوى الواقع. ومن بالغ الأهمية أن نشير إلى أن «السالب» أو النقصان ليس له وجود مسبق بحد ذاته بل يتخذ وجوده فقط عندما يدخل في علاقة مع الظاهر «الموجب»،

105 - Ibid., p.7.

أي أن الأنـا المسـلوبة لا تكـون إلا عندمـا تخلـق لنفسـها مثال-الأنـا في مرحلـة المـرآة. وبذلـك لأن الـذات دائمًـا مشـطورة بسـبب عمليـة التماهـي نفسـها، تعيـش الـذات دائمًـا في حالـة اغـتراب (alienation) مـع الواقـع، ويكـون الاغـتراب الأوَّلي هـو عـلى المسـتوى الخيـال.

يبنـي إيرنسـتو لاكلاو نظريتـه عـن الشـعبوية عـلى أسـاس هـذه النظريـات في التحليـل النفـسي ونظريـة كارل شـميت للسياسـة. وأصبحـت نظريـة لاكلاو بعـد صـدور كتابـه «عـن منطـق الشـعبوية» إحـدى أهـم النظريـات عـن هـذه الظاهـرة والأكـثر انتشـارًا. يجـادل لاكلاو أن الشـعبوية هـي منطـق خطـاب، أي عمليـة لغويـة، تُخلـق من خلالهـا الـذات السياسـية. والـذات التـي نتكلـم عنهـا هنـا بالتحديـد هـي «الشـعب.» يـرى لاكلاو بانيًـا نظريتـه عـلى عمليـة التماهـي التـي أنتجهـا التحليـل النفـسي للفـرد والجماعـة، أن الشـعب وحـدة لا يمكنهـا الوصـول إلى وحـدة نهائيـة، وليسـت بوحـدة موجـودة قبـل تسـميتها. فـإن منطـق تشـكُّل المجتمـع بالنسـبة لـلاكلاو هـو سلسـلة اختلافـات بـين مكونـات المجتمـع. وتظهـر هـذه الاختلافـات في لحظـة الشـعبوية حـين تظهـر المطالـب المتباينـة بـين الجمـوع. مـما يعنـي بالنسـبة إلى لاكلاو اسـتحالة وجـود وحـدة عضويـة «موجبـة» يتمثـل فيهـا المجتمع. فيخلـق الزعيـم الشـعبوي مـن خـلال مقولـة «الشـعب» دالًّا يشـير إلى وحـدة تلـك المطالـب. لتصبـح مقولـة «الشـعب» هـي الـدال السـيد الـذي يشـير إلى وحـدة لم تكـن ممكنـة سـابقًا تجمـع فيهـا كل المطالـب

المختلفة غير المحققة.[106] يرتبط هذا الدال السيد بسلسلة دوال ثانوية أخرى تعطي معنًى لمقولة الشعب مثل الطبقة، الوطن، الأمة، وغيرها. تختلف الدوال الثانوية حسب الأيديولوجيا للتيار الشعبوي، يمينًا أو يسارًا.[107] لكن الطريقة الوحيدة لهيمنة مقولة «الشعب» وترسيخ إمكانيته في اختراع التجانس بين المطالب المختلفة غير المحققة، هي اختراع ما هو خارج «الشعب.» وما هو خارج «الشعب» يصبح دالًّا على الآخر الرمزي الذي يمنع وصول الشعب إلى وحدته المستجدة. ويختلف ما هو خارج «الشعب»، حسب الأيديولوجيا، فتتجسد بالأوليغارشية في حالة اليسار الشعبوي أو النخبة أو اللاجئين في حالة اليمين. ولأن الصراع الشعبوي يفترض تجانسًا بين مطالب غير محققة ومتباينة، يكون الآخر خارج «الشعب» هو شامل أو عام أيضًا.[108]

بالنسبة إلى لاكلاو فإن هذه المطالب غير المحققة التي على أساسها تنجلي إمكانية تسمية «الشعب» كوحدة مفترضة، هي مطالب لا تتشارك مع بعضها أي صفة «موجبة»، كل ما يربطها ببعضها هي أنها غير محققة. وهذا هو «السالب» الذي يؤسس

---

106 - Laclau, On Populist Reason, p.96.

107 - Yannis Stavrakakis & Giorgos Katsambekis, "Left-wing populism in the European periphery: the

.case of SYRIZA", p.123

108 - Laclau, On Populist Reason, p.86

لسلسلة الدوال المربوطة بالدال السيد، أي «الشعب»، لتكون هذه السلسلة عبارة عن تجانس مفترض لتلك الوحدة. أي تجانس مفترض لما هو بالواقع غير متجانس.[109] فبالنسبة إلى لاكلاو لا تُخلق الوحدة إلا من خلال عملية التسمية، أي لا وحدة تسبق التسمية.[110] وإن استعرنا من لاكان لنفسر لاكلاو نقول: إنه لا وحدة إلا من خلال اختراع آخر في فضاء الرموز (أنا-مثالي) من خلال وظيفة الدال السيد، «الشعب» في حالة الشعبوية، التي تحب له الذات أن يحدّق بها. ولأن مقولة «الشعب» بالنسبة إلى لاكلاو لا تستطيع أن تعبر عن كل ما هو في الواقع وذلك لكونها تنحصر في عالم الرموز، يكون هذا الدال السيد فارغًا دائمًا يفشل في التعبير عن الذات كما هي فيبقى فائضًا في الواقع مسكوتًا عنه. لكن ذلك الفراغ في الدال السيد هو ما يتيح المجال لهيمنته في الصراع السياسي.[111] أخيرًا يرى لاكلاو، كما شانتال موف، أن الشعبوية هي الأفق الوحيد لتجديد الصراع اليساري الديمقراطي من خلال خلق الذات السياسية في مقولة «الشعب» والآخر «الأوليغارشية». ويعللان ذلك بحجة أن رأس المال لم يعد يسيطر على المجتمع بسيطرته على الطبقة العاملة فقط، بل تعم سيطرته على كافة

109 - Ibid., 96.
110 - Ibid., 104.
111 - Ibid. p.105-108.

الهويـات الاجتماعيـة، فلـم يعـد الـصراع السـياسي يتلخـص بالـصراع الطبقـي. فتبقـى لهـما الشـعبوية هـي تحفيـز لديمقراطيـة راديكاليـة.

تعريفنا للشعبوية

نتفـق مـع لاكلاو بـأن الشـعبوية ليسـت بأيديولوجيـا بـل هـي منطـق خطـابي يؤسـس لوحـدة لـن تسـتطيع اسـتكمال وحدتهـا. فتخلـق لنفسـها آخـر مـا، هـو خـارج الشـعب ولكـن داخلـه، كي تخلـق مـن خلالـه وحدتهـا الرمزيـة وفي الوقـت عينـه تشـير منـه إلى عـدم إمكانيـة اسـتكمال وحدتهـا طالمـا هـو موجـود. لكننـا نـرى أن لاكلاو قـد أسـقط مفهومًـا بالـغ الأهميـة في التحليـل النفـسي والماركـسي بأكملـه، وهـو مفهـوم العـارض (symptom). فإننـا نـرى أن الشـعبوية ليسـت مرضًـا ولا محفّـزًا للديمقراطيـة، بـل هـي بالتحديـد عـارض. والعـارض هـو لحظـة تفـشي المـرض أو ظهـوره، لكنـه في الوقـت عينـه لحظـة عـودة المكبـوت (return of the repressed). ليـس المكبـوت هنـا غضـب الشـعوب مـن الدولـة النيوليبيراليـة وسياسـاتها، وليسـت الحاجـة إلى وحـدة جديـدة مـن خـلال التماهـي مـع دال سـيد جديـد. ذلـك لأن المكبـوت في الواقـع لا يعـود ليظهـر كـما هـو، بـل يتحـول في عودتـه إلى شيء غـير مـا هـو عليـه.

نقـرُّ بـأن الشـعبوية هـي إشـكالية محـددة تاريخيًـا في العـصر الحديـث وذلـك لأنهـا تظهـر كأزمـة تمثيـل الشـعوب في الدولـة كمصـدر

للسلطات. وذلك يعني أنها تمظهر لأزمة متزامنة مع تاريخ الدولة البرجوازية، أي رأس المال. لذلك لا نستغرب أن الحالة الشعبوية الأولى قد ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فترة الثورة الصناعية في الولايات المتحدة. عندها قام دينيس كيرني المدافع عن الحركة العمالية بنشر الكراهية تجاه اللاجئين العمال الصينيين، أي اليد العاملة الرخيصة، حتى أدى ذلك إلى توقيع قانون استبعاد الصينيين عام 1882. أزمة الشعبوية هي عارض يشير إلى المكبوت في الدول البرجوازية. يحيل كارل شميت ذاك المكبوت إلى إشكالية السيادة، أي أصل الديمقراطية، التي تقمعها الدولة الليبيرالية داخل القانون. ولذلك فأي تجلٍّ للسيادة الشعبية، هي دائمًا على شاكلة زعيم ديكتاتور. لكننا نرى أن إشكالية السيادة هي في الأصل تمظهر سياسي وأيديولوجي لإشكالية علاقة الدولة والتمثيل السياسي بالعلاقات المادية. يشير كارل ماركس إلى التناقض في الدولة البرجوازية بين تأويل الفرد على أنه مواطن حر، ووجوده المادي داخل علاقات العمل كعامل مسلوبة منه قوة عمله ولا يملك أي حرية إلا حرية بيع قوة عمله. أي أن لا حرية له إلا الدخول في عملية الاستلاب.[112] وعلى مستوى التمثيل السياسي، يشير ماركس إلى تناقض آخر وهو أن النائب في المجلس النيابي مفترض أن يكون ممثلًا لمصالح طبقته المادية لكنه حال ما يصبح نائبًا يصبح ممثلًا

112 - Tucker, Robert C., Karl Marx, and Friedrich Engels, eds. The Marx-Engels Reader. 2d ed. New York: Norton, 1978, p.80

للأمة جمعاء، أي للمصلحة العامة أو مصلحة كلية الدولة.[113] فذلك يعني لنا أن إشكالية السيادة، بما أنها سلطة الشعب على القانون والمؤسسات، هي تمظهر سياسي وأيديولوجي لإشكالية سلطة العامل على علاقات العمل.

بذلك نقول إن الشعبوية هي عارض في الدولة البرجوازية، أي شكل من أشكال عودة المكبوت. والمكبوت كما أشار لاكان ليس بشيء «موجب» بالأصل فيُقمع، كما يفهم شميت السيادة، لكنه «السالب» أو النقصان. فيكون المكبوت العائد في الشعبوية ليس إلا البروليتاريا بما هي موقع الاستلاب الذي يؤسس ماديًّا للاغتراب في المجتمع. وأستعير من جاك رانسيير فكرة أن البروليتاريا ليست هي الطبقة العاملة وليس لها أي خصائص سوسيولوجيا «موجبة.»[114] هي موقع الاستلاب بحد ذاته الذي يظهر على المستوى الرمزي على أنه «الشعب.» أي أن «الشعب» هي الأنا-المثالية للذات المشطورة أو المفصومة، البروليتاريا في حالة الاغتراب. وما تنتجه هذه البروليتاريا في الواقع هو فائض القيمة (sur-plus value) المسلوب، وهو الفائض المكبوت دومًا في الواقع الذي لا تستطيع مقولة «شعب» (الدال السيد) أن تعبر عنه. وتخلق

113 - Marx, Karl and Joseph J. O'Malley. Critique of Hegel›s ‹Philosophy of Right›. Oxford UK: Oxford University Press, 1970, p.104.
114 - Jacques Ranciere, Disagreement Politics and Philosophy, trans. Julie Rose, Minneapolis, University of Minnesota Press, 1999, p. 38.

مقولـة «الشـعب» وحـدة رمزيـة «موجبـة» غـير موجـودة بالأصـل. فتكـون عـودة المكبـوت هـذه هـي نفسـها كبتًـا جديـدًا للنقصـان، أي البروليتاريـا في مقولـة «الشـعب.» ولأن الشـعب كرمـز يعـبر عـن جسـد مـن طبقـات وهويـات غـير متجانسـة، أو قـل جسـد متجـزِّئ، تحتـاج الشـعبوية إلى تمـاهٍ خيـالي مـع الزعيـم الواحـد. ليكـون ذلـك الزعيـم هـو صـورة الشـعب في المـرآة. ولذلـك يقـوم الزعيـم الشـعبوي بـأداء سـياسي يفيـد الإيحـاء للجمهـور بأنـه «واحـد منهـم.»[115] فتظهـر الشـعبوية وكأنهـا تجسـيد أو وجـود محـض لسـيادة الشـعب دون وسـيط، مـع أن الزعيـم يكـون وسـيطها التمثيـلي في الخيـال كـما يكـون الـدال السـيد عـلى مسـتوى الرمـوز. فتـؤدي التيـارات الشـعبوية دائمًـا وحتـمًا إن نجحـت في اسـتلام الحكـم إلى نظـام ديكتاتـوري ينفي حقوق المواطـن وتقويـض المؤسسـات الديمقراطيـة. كـما أن الشـعبوية تحتـاج إلى مـا هـو خـارج «الشـعب»، إلى آخـر رمـزي يمتلـك تلـك الوحـدة المتخيلـة غـير المكتملـة في مقولـة الشـعب. فيخلـق عـدو الشـعب، أوليغارشـيا أو نخبـة أو لاجئـين، تتخيلهـم التيـارات الشـعبوية عـلى أنهـم يتمتعـون بمـا ينقصهـا هـي. وكـما قـال المحلـل النفـسي آلان ميلـر في تحليـل العنصريـة، إن المكـروه في الآخـر هـو التلـذذ الـذي نخـال أن

115 - Juliet Flower MacCannell, "LACAN'S IMAGINARY: A Practical Guide", in Jacque Lacan, Between Psychoanalysis and Politics, edited by: Samo Tomsic and Andreja Zevnick, 2016. p.77

الآخر يتمتع به.[116] تلذذ نخال وجوده عند الآخر وهو مسلوب في الذات. وبما أن الشعبوية هي لحظة قلق جرَّاء فشل تماهٍ سابق وبحث عن تماهٍ جديد، يسهل تحويل العاطفة إلى حقد تجاه آخر ما. ومن خلال ذلك الحقد والعداء تجاه الآخر يشرعن اليمين الشعبوي حكمه في السلطة. أي أنه يشرعن وجوده في الحكم بحجة أن الآخر الخطر موجود، مثلما تشرعن الأنظمة العربية الآن حكمها وأفعالها القمعية بحجة «محاربة الإرهاب.» وأجادل أخيرًا بأن ومن خلال هذا التعريف للشعبوية الذي طرحناه الذي يتعدى فكرة المرض أو المحفِّز للديمقراطية الليبيرالية، تصبح الشعبوية إشكالية صحيحة الطرح في العالم العربي الذي لطالما عاش بأغلبيته تحت حكم الديكتاتوريات.

الخطاب ضد اللاجئين

العداء للآخر ليس خاصية لليمين الشعبوي فقط، فهي بالضرورة سمة التيارات الشعبوية جميعها. لكن العداء تجاه اللاجئين هي ميزة خاصة لليمين الشعبوي حول العالم. يخلق اليمين الشعبوي من اللاجئين آخر للشعب ليكونوا أعداءه. يخال لجمهور اليمين الشعبوي أن اللاجئين هم وحدة قائمة بذاتها تنعم

116 - Jacques-Alain Miller, "Universalism versus globalization. This at least will be our US chapter – to be read as United Symptoms," The Symptom, Fall 2008. https://www.lacan.com/symptom/extimity.html

بما لا يحق لها. فيكون اللاجئون آخر ينعم بما هو مسلوب عن «الشعب.» والمسلوب بالتحديد هو قدرتهم على أن يستكملوا وحدتهم داخل مقولة «الشعب» وذلك بسبب وجود اللاجئين. لكن المفارقة الغائبة عن إدراك اليمين الشعبوي، هي أن عداءهم للاجئين (الآخر) هو ما يسمح لهم أن يتكونوا كشعب بالأساس. فيكون اللاجئ بالنسبة إلى اليمين الشعبوي خطرًا على وجود هوية الوطن وعبئًا اقتصاديًّا على المواطنين، ولكن في الوقت عينه ومن دون أي إدراك يصبح اللاجئون شرطًا من شروط تشكيل وحدة الشعب. وبذلك تكون ضرورة استدامة الصراع (أو العداء) مع ذلك الآخر كي تستدام وحدة الشعب. فيصبح بذلك هدف اليمين الشعبوي «إعادتهم إلى بلادهم» بالقوة. فيطالب بتخفيض المنافع الاقتصادية للاجئين التي تقدمها إما الدولة وإما المنظمات غير الحكومية، ويحاول تطويق قدرتهم على العيش بكرامة داخل البلاد، ويبرر في بعض الحالات ممارسة القمع والعنف القانوني أو الجسدي عليهم.

يمكن لِلُبنان أن يقدم لنا نموذجًا واضحًا عن خطر اليمين الشعبوي على اللاجئين، فله تاريخ طويل بحركات شعبوية يمينية تمارس القمع والعنف القانوني والجسدي وصولًا إلى الإجرام بحق اللاجئين من بلدان مختلفة. إن قضية اللاجئين الفلسطينيين في لبنان

الذيـن يعيشـون في انعـدام شـبه تـام لحقوقهـم المدنيـة، هـي قضيـة معروفـة وقديمـة. يقيـم القانـون اللبنـاني حظـرًا عـلى الأعـمال التـي تحـق للاجـئ الفلسـطيني أن ينخـرط فيهـا. وتجـبره عـلى الحصـول عـلى رخصـة عمـل مـن وزارة العمـل. وذلـك يضمـن للدولـة اللبنانيـة يـدًا عاملـة رخيصـة تـزود السـوق اللبنـاني بخدمـات أرخـص قابلـة للاسـتهلاك بشـكل أوسـع. كـما أن وضـع اللاجئـين الفلسـطينيين في عشـوائيات ضمـن المـدن يكـون يـدًا عاملـة رخيصـة لـرأس المـال، أي تحفِّـز الدولـة اللبنانيـة مـن خلالهـم الاسـتثمار عـلى حسـاب حقـوق اللاجئـين ومعيشـتهم.[117] ووصـل قمـع حقـوق اللاجئـين الفلسـطينيين في 2001 إلى إصـدار قانـون يمنـع الفلسـطينيين مـن التملـك والوراثـة.[118] وتدافـع الأحـزاب الشـعبوية اليمينيـة في لبنـان عـن قمـع اللاجئـين الفلسـطينيين وحقوقهـم المدنيـة مـن خـلال اسـتخدام ذريعـة «خطـر التوطـين» وخلـل «الهويـة اللبنانيـة» المبنيـة عـلى التوازنـات الطائفيـة. أمـا بعـد أن أصبـح الحديـث عـن بنـاء الجـدران بـين الشـعوب منتـشرًا بكـثرة مـع دونالـد ترامـب، قـررت الدولـة اللبنانيـة عـام 2016 بنـاء جـدار يفصـل بـين مخيَّـم عـين الحلـوة وجوارهـا. أتى هـذا القـرار تحـت حجـة أن تلـك المخيـمات هـي «بـؤر إرهابيـة.» وأخـيرًا في عـام 2019، تنافسـت الأحـزاب الشـعبوية اليمينيـة المسـيحية في لبنـان عـلى مـدى

117 - إسـلام خطيـب، «غضـب المخيمـات: كرامـة العيـش ضـد التوطيـن»، بـاب الـواد، ٢١ تمـوز 2019. https://is.gd/P0YprX

118 - المصدر نفسه.

وطنيتها، ما تُرجِّم تلقائيًّا إلى تنافس على العنصرية. فبعد أن روَّج التيار الوطني الحر لحملة تضييق على العمالة السورية، تخوَّف حزب القوات اللبنانية أن يبدو أمام جمهوره المسيحي أقل تشددًا وتعصبًا بحق اللاجئين. وذلك لأن فكرة الوطن اللبناني الذي نصّه اليمين المسيحي مثل ميشال شيحا، بني على أساس تميز لبنان بوجود المسيحيين ما يفرّقه عن العالم العربي الإسلامي من حوله. فأصدر وزير العمل المنتمي إلى حزب القوات اللبنانية في عام 2019، خطة «مكافحة العمالة الأجنبية غير الشرعية على الأراضي اللبنانية.»119 وتضمنت تلك الخطة التي لم تطبق طويلاً عدم السماح للاجئين الفلسطينيين بالعمل دون رخصة، ما أدى إلى طرد كثيرين من عملهم.

لكن أزمة قمع اللاجئين ونشر خطاب الكراهية الشعبوي تجاههم في لبنان تفجرت مع اللجوء السوري بعد الحرب السورية. بعدما كان لبنان قد بنى اقتصاده منذ فترة ما بعد الحرب الأهلية على رأس المال المصرفي وقطاع المقاولات، بدأ يرى الأزمة المالية الراهنة في الأفق منذ عام 2014. فقد كان العمال السوريون في السابق هم مصدر قوة العمل في الاقتصاد اللبناني الذي يعتمد عليه رأس المال لأنهم يشكلون يدًا عاملة رخيصة. فمعظم قوة

119 - إيلده الغصين، ««العمالة الأجنبية»: الوزارة تحب «المكافحة» لا «التنظيم»: خطة لا تؤدي سوى إلى تغذية العداء للنازحين»، جريدة الأخبار، 15 حزيران 2019. https://al-akhbar.com/Community/271965

العمل المسلوبة لصالح تراكم أرباح وثروات الأوليغارشية اللبنانية كان مصدرها العمالة السورية. فلذلك لم يكن الخطاب الشعبوي المعادي للعمال السوريين مهيمنًا في لبنان، حتى ولو لم يخلُ البلد من خطاب عنصري ضدهم. لكن منذ بداية أزمة اللجوء السوري بدأت تيارات اليمين الشعبوي بالحديث عن عدم تكرار تجربة اللجوء الفلسطيني. فلم تقبل الدولة اللبنانية أن تعمِّر لهم مخيمات لائقة خوفًا من بقائهم في لبنان. بل إن أكثر من ٩٧٪ من اللاجئين السوريين يدفعون إيجار خيامهم ومسكنهم في لبنان.[120] لكن بقيت الدولة اللبنانية تطالب الدول المانحة بمساعدات مالية بحجة أنه بلد مضيف للاجئين، أي أنه يتحمل نيابة عن بلدان أخرى أعباء اللجوء. حتى أنه عندما توقفت المساعدات من الأمم المتحدة للمدارس الرسمية في 2014، أصدر وزير التربية وهو ينتمي إلى تيار يميني شعبوي وقف تسجيل الطلاب السوريين لمدة معينة.[121]

في العام نفسه أخذت عدة بلديات في لبنان قرارات منع

120 - UNHCR and UN-Habitat, "HOUSING, LAND & PROPERTY ISSUES IN LEBANON IMPLICATIONS OF THE SYRIAN REFUGEE CRISIS", August 2014, p.31.

121 - سارة ونسا وعلاء مروّة، «الدولة اللبنانية تشحذ على نية تعليم الطلاب «غير اللبنانيين"»، المفكرة القانونية، 16 أيلول 2014.

https://mail.legal-agenda.com/newsarticle.php?id=781&folder=legal-news&lang=ar

تجـول السـوريين في المنطقـة مسـاء. وذلـك دائمًـا بحجـة الخطـر الـذي يشـكله السـوريون، ورغبـة البلديـة باسـتقرار أمـن المنطقـة. فانتـشرت، ولا تـزال حتـى الآن، يافطـات في مختلـف المناطـق تعلـم السـوريين قـرار البلـد بمنـع تجوالهـم. مـا أعطـى بعـض المجموعـات المحليـة مـن المواطنـين اللبنانيـين حـق ممارسـة العنـف عـلى السـوريين مـن غـير حسـاب. وذلـك بحجـة حفـظ الأمـن في المنطقـة.[122] تسـتمر قـرارات منـع التجـول والعنـف في المناطـق ضـد اللاجئـين حتـى الآن. وفي عـام 2015 فُـرض نظـام الكفالـة عـلى اللاجئـين السـوريين. فـازدادت عليهـم كلفـة المعيشـة، واشـتدت مراقبـة القـوى الأمنيـة لهـم، وأصبـح تسـجيل الـولادات الجديـدة أصعـب.[123] فأصبـح معظـم اللاجئـين في لبنـان، وبالأخـص غـير المسـجلين، يشـعرون وكأنهـم في خطـر دائـم بسـبب مخالفـة القانـون. فتدريجيًّـا أصبحـوا مسـلوبين شـيئًا فشـيئًا مـن حقوقهـم المدنيـة حتـى ولـو كانـوا غـير مواطنـين.

تزايـدت المطالـب العلنيـة مـن قبـل اليمـين الشـعبوي في لبنـان بعـودة اللاجئـين السـوريين إلى بلدهـم. حتـى أنهـم ناشـدوا الجهـات

122 - مايـا حلـو، «قـرارات منـع التجـوّل: حـرب البلديـات اللبنانيـة عـلى الفقـراء»، المفكـرة القانونيـة، 9 كانـون الأول 2014.

https://mail.legal-agenda.com/article.php?id=948&folder=articles&lang=ar

123 - نزار صاغية، «صناعة الهشاشة»، المفكرة القانونية، 11 شباط 2015.

https://mail.legal-agenda.com/article.php?id=992&folder=articles&lang=ar

الداعمة للاجئين بوقف المساعدات كي «لا يحفزوهم» على البقاء في لبنان، أي كي يجبروهم على العودة من خلال تجويعهم. ومع تفاقم الأزمة الاقتصادية خرجت حملات في عام ٢٠١٩ نظَّمها التيار الوطني الحر تطالب الشركات الصغيرة والمتوسطة باستبدال العمالة اللبنانية بعمالة سورية. وخرجت في ٢٩ تشرين الثاني ٢٠١٩ مظاهرة نظّمها التيار الوطني الحر تحت اسم «دمج»، تدعو فيه إلى عودة اللاجئين لأن «البلد لا يستطيع تحمل العبء.» وهكذا يحاول اليمين الشعبوي دائمًا أن يخلق من اللاجئين وحدة معادية للشعب (آخر) يدَّعي أنها سبب مشاكل البلاد. فعوضًا عن الاعتراف بوجود خلل بنيوي في الاقتصاد يحوِّل اليمين الشعبوي المشكلة الاقتصادية إلى مشكلة ضد آخر ما، اللاجئين في هذه الحالة، كي يبرر حكمه وسياساته. فيسلب من اللاجئين عبر تلك السياسات حقوقهم المدنية وإمكانية تأمين عيش كريم.

الخطابات البديلة في العالم والمنطقة

بدأنا هذا النص بتسمية السياق العالمي للسياسة في الحاضر بـ«اللحظة الشعبوية.» وقد ذكرنا آنفًا أن الشعبوية ليست نظامًا فكريًّا ذا أفكار محددة، أي أنها ليست بأيديولوجيا من حيث المضمون. لكنها شكل من أشكال عملية تشكل المجموعات، أي شكل من أشكال عمليات التماهي. فهي أيديولوجيا بقدر ما هي

إطـار خطـابي محـدد يعمـل عـلى إعـادة تشـكيل علاقـات ظرفيـة في اللاوعـي الجماعـي، لتظهـر الشـعبوية بتجليات سياسـية عالميـة. ولذلك، فـإن كنـا نبحـث عـن بدائـل عـن الشـعبوية اليمينيـة، فمـما لا شـك فيه أن تلـك البدائـل موجـودة. فقـد أطلقنـا عـلى السـياق السـياسي العالمـي تسـمية «لحظـة شـعبوية» ليـس للدلالـة عـلى هيمنـة اليمين الشـعبوي فقـط. بـل الأصـح للدلالـة عـلى هيمنـة الشـعبوية كشـكل للـصراع السـياسي في اللحظـة التاريخيـة الحـاضرة. أي أن مـا يشـكل كونيـة الـصراع السـياسي الآن هـما قطبـا الحقـل الشـعبوي، وهـما الشـعبوية اليمينيـة والشـعبوية اليسـارية. فـإن الشـعبوية اليسـارية هـي لحظـة عالميـة كـما الشـعبوية اليمينيـة، تتسـع مفاعيلهـا تـارة وتنخفـض تـارة أخـرى حسـب التطـورات السياسـية في العـالم ككل والبلد بشـكل خاص. فوجـود قطبـا الشـعبوية في لحظـة تاريخيـة محـددة هـو مـا يؤمـن حركـة الـصراع السـياسي داخـل المنطـق الشـعبوي.

في نـص «المشـاريع العالميـة المضـادة لليمـين الشـعبوي، في البحـث عـن مقاومـة عربيـة» يشـير لنـا وائل جـمال إلى حـركات محليـة مختلفة حـول العـالم تشـكل مـا يسـمى باليسـار الشـعبوي.[124] يذكـر أهـم هـذه الحـركات والتجـارب مثـل بوديمـوس في إسـبانيا، سـيريزا في اليونـان، بيرني

124 - وائـل جمـال، «المشـاريع العالميـة المضـادة لليميـن الشـعبوي، فـي البحـث عـن مقاومـة عربيـة»، فـي كتـاب «التغيـرات فـي المنطقـة العربيـة وأثـر التطـورات الدوليـة: بيـن تيـارات الشـعبوية والأصـوات البديلـة»، منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات، 2019.

ساندرز في الولايات المتحدة، وجيرمي كوربن في بريطانيا. يؤكد جمال على أن الطابع المشترك لهذه التجارب والحركات أنَّ جميعها تنطلق من برنامج مضاد للسياسات التقشفية النيوليبيرالية. جميعها تطالب بمجتمع يسعى إلى العدالة الاجتماعية من خلال ممارسة سياسات مختلفة تعمل على تقليص الشرخ الطبقي.[125] ولذلك تسعى إلى أن تكون حركات جماهيرية واسعة. فتستخدم مصطلحات في الخطاب السياسي أكثر شمولًا لجميع فئات المجتمع ولا تقتصر على العمال أو الطبقة العاملة. تحاول هذه الحركات أن تضم جميع الصراعات السياسية، من نسوية وأقليات وفئات مهمشة وغيرها. فتكون كل تلك الصراعات هي صراعًا نحو ديمقراطية تؤمن تمثيلًا صحيحًا لغالبية الشعب لتؤمن لهم الدولة الديمقراطية حقّا حقوقهم. وبما أن من يحتكر سلطة الدولة هي الأوليغارشية، تجمع تلك الحركات الشعبوية اليسارية الصراع السياسي تحت مقولة عامة هي «الشعب» ضد «الأوليغارشية.»[126]

125 - المصدر نفسه.

126 - Yannis Stavrakakis & Giorgos Katsambekis (2014) Left-wing populism in the European periphery: the case of SYRIZA, Journal of Political Ideologies, 19:2, 119-142, DOI:10.1080/13569317.2014.909266.

and Íñigo Errejón, Sirio Canós Donnay, and Chantal Mouffe, Podemos In the Name of the People (London [England: Lawrence & Wishart, 2016), p.80.

يشير لنا وائل جمال في دراسته إلى أن هذه الحركات يتعثّر عليها النجاح. فحتى بعدما استطاعت سيريزا في اليونان أن تدخل إلى الحكم، أُجبرت من قبل دول ومؤسسات عالمية ذات مصالح مناقضة لها على أن تتبع سياسات مناقضة لمشروعها السياسي الأساسي. فوصلت تلك التجربة إلى حدِّها بعد هزيمتها في الانتخابات.[127] وأخيرًا وربما ليس آخرًا قد شكَّلت هزيمة جيرمي كوربن في الانتخابات البريطانية إحدى أكبر الهزائم لليسار الشعبوي عامة وحزب العمال البريطاني خصوصًا. فإن كل تلك التجارب تؤكد لنا على وجود خطاب بديل مناهض لليمين الشعبوي، يتمثَّل باليسار الشعبوي، لكنه غير قادر على مناهضة اليمين الشعبوي المدعوم بمراكز مصالح رأس المال.

أما في العالم العربي فالوضع السياسي مختلف بخصائص تميزه جزئيًّا، لكنه يقع في اللحظة السياسية العالمية ذاتها كما ذكرنا سابقًا. يسرد لنا عباس عاصي مثلًا عملية تكوين خطاب بديل في لبنان منذ عام 2011 مرورًا بتظاهرات 2015 وثم انتخابات 2016 البلدية و2018 النيابية. ويذكر عدة نجاحات لتلك الحركات أهمها أنها استطاعت أن تفرض على الأحزاب اللبنانية المهيمنة تعديلًا في الخطاب السياسي، مثل تغيير قانون الانتخابات إلى نسبي بدلًا

127 - وائل جمال، «المشاريع العالمية المضادة لليمين الشعبوي، في البحث عن مقاومة عربية».

مـن الأكـثري كالاعتـماد عـلى برامـج واضحـة في المعـارك الانتخابيـة.[128] وتجـدر الإشـارة إلى أن الحالـة اللبنانيـة قـد تطـورت لتصـل إلى ذروة اليسـار الشـعبوي في العـالم العـربي، حيـث ومع انـدلاع الثـورة في تشرين 2019 أصبحـت المواجهـة مـع الأوليغارشـية الحاكمـة مبـاشرة. ويظهـر ذلـك جليًّـا في أعـمال التظاهـر ضـد مـصرف لبنـان والمصـارف عامـة وفي خطـاب المجموعـات المشـاركة في الثـورة. فقـد انتقـل الخطـاب المهيمـن عـلى الـصراع السـياسي شـيئًا فشـيئًا مـن «شـعب» ضـد «طبقـة سياسـية حاكمـة» إلى «شـعب» ضـد «أوليغارشـية» وذلـك خاصـة بعـد وضـع المصـارف اللبنانيـة قيـودًا عـلى ودائـع المودعـين.

أمـا في الحالـة السـودانية فيخبرنـا عـزة مصطفـى أن الـصراع السـياسي قـد مـرَّ بتقلبـات خطابيـة مهمـة منـذ 1971 حتـى الآن. بـدأ بسـيطرة الخطـاب الاشـتراكي والقومـي العـربي، ثـم الإسـلامي، وبعدهـا الإسـلامي الراديـكالي، وآخرهـا المـدني.[129] وقـد فرضـت الثـورة الأخـيرة في السـودان خطابًـا يتمحـور حـول بنـاء الدولـة المدنيـة. ويشـير الكاتـب إلى أن اسـتعمال عبـارة «مدنيـة» ليـس إلا تخفيفًـا مـن المشـاعر العدائيـة التـي تثيرهـا عبـارة «علمانيـة.»[130] وهـو خطـاب كـما في لبنـان

128 - عبـاس عاصـي، «مشـروع المنطقـة العربيـة بيـن التحـولات الإقليميـة والسـياق الدولـي صعـود الخطـاب البديـل: حالـة لبنـان»، منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات، 2019.

129 - عـزة مصطفـى، «حـراك السـودان: خطـابٌ قديـمٌ لـم يمـت، وجديـدٌ فـي طـور التخلـق»، منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات، 2019.

130 - المصدر نفسه.

يتمحـور حـول بنـاء دولـة عدالـة اجتماعيـة بعيـدًا عـن العلاقـات الطبقيـة والاجتماعيـة التقليديـة. ويحـاول الخطـاب في السـودان، كـما في لبنـان، أن يكـون بديـلًا تقدميًّا وفي الوقـت عينـه يشـمل أكـبر فئـة مـن الشـعب، مثـل النسـاء والأقليـات والمهمشـين.

ففـي العـالم العـربي كـما العـالم الغـربي خطابـات بديلـة عـن الشـعبوية اليمينيـة يمكـن اختصارهـا بشـعبوية يسـارية عـلى اختـلاف خصائصهـا المحليـة. وليـس الخطـاب الـذي يدعـو إلى بنـاء الدولـة هـو خـاص في العـالم العـربي. فـإن اليمـين الشـعبوي قـد قـام عـلى خطـاب مناهـض لأسـس الدولـة الليبراليـة الحديثـة ومؤسسـاتها. فيـأتي اليسـار الشـعبوي مطالبًـا بتعزيـز تلـك الأسـس والمؤسسـات الضامنـة للديمقراطيـة والعدالـة حسـب رأي مناصريـه. فحتـى ولـو كان الخطـاب البديـل في العـالم العـربي يطالـب بدولـة «مدنيـة»، فالـصراع نحـو تفعيـل دولـة المؤسسـات والرعايـة الاجتماعيـة هـو نفسـه عالميًّـا وسـط هيمنـة النيوليبراليـة. وتنظِّـر مثـلًا شـنتال مـوف لهـذا الـصراع الشـعبوي عـلى أنـه الأفـق الوحيـد لليسـار كي يدخـل المعـترك السـياسي بعـد فشـل تجاربـه السـابقة. وذلـك لأنـه وفي ظـل النيوليبراليـة تزعـم مـوف أن اليسـار لم يعـد يسـتطيع أن يـؤوِّل الـصراع السـياسي كـصراع طبقـي تتخـذ فيـه الطبقـة العاملـة موقعًـا مميّـزًا عـن غيرهـا مـن

الفئات الاجتماعية.[131] لكن وبرهان فشل تلك الحركات الشعبوية اليسارية عالميًّا، نطرح ثلاثة أسئلة ختامية: (1) أليست الشعبوية كمنطق للصراع السياسي هي منطقًا برجوازيًّا مبنيًّا على التعددية الفردية التي تشكل شعبًا ضمن دولة وطنية، يكون فيها الشعب ليس إلا تجمع أفراد منفصلين ذوي هويات جزئية مختلفة؟ (2) إن كانت الأوليغارشية الحاكمة في كل البلاد تترابط مصالحها عالميًّا بشكل وثيق من خلال المؤسسات البرجوازية العالمية (مثل البنك الدولي والنظام المصرفي وغيرها)، فكيف لليسار أن ينجح إن بقي ينظر إلى نفسه كحركة محلية ضمن دولة برجوازية خاصة به؟ (3) أليست الشعبوية (يمينًا ويسارًا) التي تشرِّع لنفسها في الصراع السياسي أولًا على أساس الكراهية والعداء للآخر (مهما اختلف الآخر)، هي ليست إلا عارضًا لحقبة «ما بعد الحداثة» أو «ما بعد الحقيقة» التي لم تعد فيه الحقيقة مقياسًا للصراع السياسي ولا دافعًا للتحرر؟

131 - Mouffe, For a Left Populism, p.13.

3 - الحوكمة في العالم العربي: كيف تؤثر الشعبوية على فرص التحول الديمقراطي في المنطقة

أحمد عبد ربه[132]

132 - باحث زائر في مركز دراسات الشرق الأوسط في كلية جوزيف كوربل للدراسات الدولية بجامعة دنفر. هو أستاذ مساعد في السياسة المقارنة في كل من جامعة القاهرة والجامعة الأمريكية في القاهرة. أصبح شخصية بارزة في وسائل الإعلام المصرية، حيث أجرى سلسلة من الحوارات والتحليلات حول التحول الديمقراطي والتحولات في مصر وبلدان الربيع العربي.

مقدمة:[133]

رغـم التراجعـات والإحباطـات الكبـيرة التـي شـهدها الشـارع العـربي بعـد ثـورة توقعـات عاليـة عـلى خلفيـة انتفاضـات الربيـع العـربي في ٢٠١١، فـإن الحـراك الـذي شـهدته مـصر في ٢٠ و٢٧ سـبتمبر، والحـراك الـذي تشـهده لبنـان والعـراق وقـت كتابـة هـذه السـطور وقبلـه الحـراكات الناجحـة نسـبيًّا في السـودان والجزائـر أثبـت أن فرضيـة مـوت الربيـع العـربي أو اسـتثناء المنطقـة العربيـة مـن التحـولات الديمقراطيـة لأسـباب ثقافيـة أو سياسـية أو هيكليـة هـي فرضيـات غـير دقيقـة.

تتنـاول هـذه الورقـة بالأسـاس قضيـة الحوكمـة والتحـول الديمقراطـي في العـالم العـربي في ظـل تصاعـد الخطابـات والسياسـات الشـعبوية إقليميًّـا ودوليًّـا خـلال السـنوات الخمـس الأخـيرة. تنطلـق الورقـة مـن فرضيـة مسـبقة ترفـض اعتبـار العـالم العـربي عصيًّـا عـلى التحـول الديمقراطـي كـما تفـترض بعـض الأدبيـات الغربيـة والخطابـات الأكاديميـة في العـالم والمنطقـة العربيـة، حيـث تـرى الورقـة أن عمليـة التحـول الديمقراطـي بأشـكالها ومراحلهـا المختلفـة هـي مسـألة حتميـة

133 - مدرس النظم السياسية بجامعة القاهرة، الأستاذ المساعد الزائر بجامعة دنفر.

ستمر بها الدول العربية كما مرت بها مناطق مختلفة من العالم خضعت للحكم السلطوي لعقود. ولكن هذه الحتمية تشمل أيضًا الإقرار بوجود تحديات عدة تعوق هذا التحول، ومن هنا تركز الورقة على عقبة التحول الديمقراطي في العالم العربي على خلفية تصاعد الشعبوية دوليًا وإقليميًا قبل أن تناقش الخطابات البديلة وفرص تعزيز الديمقراطية في ظل هذه المعادلة المعقدة. ستعتمد الورقة بالأساس على الخلاصات التحليلية للأوراق الخلفية لمشروع «الحوكمة والتطور الديمقراطي في العالم العربي» بحيث تربط بين نتائجها في محاولة للوصول إلى خاتمة تحليلية بخصوص قضية مستقبل الديمقراطية في العالم العربي.

وفي هذا الإطار تناقش الورقة السؤال المركب التالي: ما هي آفاق وفرص التحول الديمقراطي في العالم العربي في ضوء معادلة إقليمية ودولية تعزز الشعبوية وترفض الديمقراطية؟ هل توفر الخطابات البديلة الناجحة في مناهضة الشعبوية إقليميًا ودوليًا فرصة للنجاح الديمقراطي في المنطقة، أم أنها مجرد مقاومات فردية دون تأثير متوقع على مستقبل الديمقراطية في المنطقة؟ تنقسم الورقة إلى أربعة أقسام، يناقش القسم الأول خلفية نظرية عن التحول الديمقراطي وارتباطه بالحوكمة، ومناقشة فرضية الاستثناء العربي في ضوء الموجات الثلاث للتحول الديمقراطي عالميًا، ثم

يـأتي القسـم الثـاني لتحليـل خطابـات وفـرص تصاعـد الشـعبوية عالميًّـا وإقليميًّـا، قبـل أن تناقـش الورقـة في القسـم الثالـث تصاعـد الخطابـات البديلـة وتأثـير ذلـك عـلى فـرص الإصـلاح والتحـول الديمقراطـي في المنطقـة العربيـة، وتختتـم الورقـة بالقسـم الرابـع الـذي يرسـم سـيناريوهات المسـتقبل في ضـوء محـددات السياسـة العربيـة منـذ انطـلاق الثـورات العربيـة في 2011 وحتـى اللحظـة.

القسم الأول: التحول الديمقراطي والحوكمة، نظرة عالمية

هنـاك اتفـاق بـين علـماء السياسـة عـلى أن نهايـة القـرن العشريـن قـد شـهدت أكـبر موجـة تحـول ديمقراطـي عرفـه تاريـخ البشريـة، فبينـما لم يكـن هنـاك سـوى أربعـين دولـة في السـبعينيات يمكـن وصفهـم بالديمقراطيـة ويتركـز معظمهـم في أوروبـا الغربيـة وأمريـكا الشـمالية، فإنـه وبحلـول تسـعينيات القـرن المـاضي كان هنـاك مـا يقـرب مـن 120 دولـة يمثلـون ثلثـي سـكان العـالم يمكـن وصفهـم بامتـلاك نظـم ديمقراطيـة. كانـت فـترة التسـعينيات هي الفـترة الذهبية للديمقراطيـة عالميًّـا وهـو مـا وصفـه العلـماء بالموجـة الثالثـة للتحـول الديمقراطـي، بعـد الموجـة الأولى في القـرن التاسـع عـشر، والموجـة الثانيـة بعـد نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة[134].

134 - W. Andy Knight. 2009. "Democracy and Good governance," in: The Oxford Handbook of the United Nations. Sam Daws and Thomas G. Weiss (eds). DOI: 10.1093/oxfordhb/9780199560103.003.0036

تميزت الموجة الثالثة للديمقراطية بسمتين، الأولى هي الانتشار الجغرافي حيث اشتملت على دول تحولت ديمقراطيًّا في شرق ووسط أوروبا بالإضافة إلى دول أمريكا اللاتينية وبعض دول جنوب شرق آسيا وإفريقيا جنوب الصحراء، بينما كانت السمة الثانية هي تعميق معني الديمقراطية بحيث لم تعد الديمقراطية تقتصر على التعريف المؤسسي (انتخابات وتعددية حزبية) ولكنها أصبحت تعني أيضًا ضمانات تمثيل المعارضة في البرلمان وتطبيق القانون والسيطرة المدنية على المؤسستين العسكرية والأمنية ومشاركة المجتمع المدني في صنع القرار وهو ما اصطلح على تسميته بالحوكمة أو الحكم الرشيد.

الحقيقة أن ذلك التحول الأخير في فهم الديمقراطية كان بسبب ملاحظة بعض علماء السياسة أن الموجة الثالثة للتحول الديمقراطي قد تكون خادعة بعض الشيء إذ لاحظت مثلًا مارينا أوتاوي أن العديد من الدولة الإفريقية بالإضافة إلى دول شرق أوروبا تمتعت بنظام حكم يمكن وصفه مؤسسيًّا بالديمقراطي لكن دون اتباع قواعد الحوكمة، ذلك أن بعض الحكام المنتخبين ديمقراطيًّا في هذه الدول ظل محتفظًا بحصانات خاصة مكنته هو وأسرته وحاشيته الضيقة من إساءة استغلال الموارد كما أنه في بعض الحالات الأخرى كان هناك تمييز بين المواطنين على أسس عرقية

أو دينيـة، بينـما اسـتغل حـكام آخـرون مناصبهـم التـي وصلـوا إليهـا بالانتخـاب مـن أجـل تحصـين بعـض الميلشـيات أو العصابـات للدفـاع عنهـم وعـن حاشـيتهم، مـا دفـع أوتـاوي إلى الاعتقـاد بأننـا ومـع نهايـة القـرن العشريـن شـهدنا اسـتفاقة للنظـم السـلطوية وهـو الملمـح الـذي أخـذ في التصاعـد حتـى اللحظـة الحاليـة وخاصـة بعـد صعـود اليمـين في بعـض الـدول الأوروبيـة فضـلًا عـن الولايـات المتحـدة وبعـض دول أمريـكا اللاتينيـة[135].

وعـلى عكـس الفهـم الشـائع _حتـى بـين الأكاديميـين_ أن الحوكمـة في جـزء مـن منظومـة التحـول الديموقراطـي الـذي يركـز تحديـدًا عـلى الترابـط والتعـاون بـين مؤسسـات الدولـة المختلفـة وبـين منظـمات المجتمـع المـدني وبـين مجتمـع المـال ورجـال الأعـمال، فـإن فرانسـيس فوكوياما يضـع تعريفًـا مختلفًـا للحوكمـة لتعنـي: «قـدرة الحكومـة عـلى صناعـة القواعـد القوانـين وعـلى تطبيقهـا بالإضافـة إلى قدرتهـا عـلى تقديـم الخدمـات العامـة بغـض النظـر عـن أن هـذه الحكومـة ديموقراطيـة أو غـير ديموقراطيـة».[136]

135 - Marina Ottaway, Democracy Challenged: The Rise of Semi Authoritarianism (Washington, DC: Carnegie Endowment for International Peace, 2003), 3.

136 - Francis Fukuyama. January 2013. "What is Governance?". Center for Global Development. Working paper No. 314. http://tiny.cc/opiwiz retrived on January 16, 2020. Pp. 3-4.

في هـذا السـياق يـرى فوكوياما أن دراسـة النظـم السـلطوية لاتقل أهميـة عـن دراسـة النظـم غـير الديموقراطيـة، ومـن هنـا فمنظـور الحوكمـة هـو لدراسـة قـدرة مؤسسـات الدولـة عـلى تقديـم الخدمـات العامـة بكفـاءة وهـو مـا يوفـر للشـعوب فـرص حيـاة أفضـل ومـن هنـا يكـون التركيـز عـلي المؤسسـة الأهـم التـي يـرى فوكوياما أنـه يتـم تجاهلهـا في دراسـات النظـم السياسـية المقارنـة أو هـو الجهـاز البيروقراطـي للدولـة[137].

ورغـم اتفـاق الورقـة مـع منظـور فوكوياما لمفهـوم الحوكمـة، فإنهـا سـوف تسـتخدم المفهـوم هنـا بمعنـاه الأكـثر شـيوعًا ليكـون مرتبطًا بكفـاءة مؤسسـات الحكـم في إطـار يتسـم بقواعـد ديموقراطيـة مؤسسـية.

موجات التحول الديمقراطي وفرضية الاستثناء العربي

حتـى العـام 2010 وباسـتثناء دولتـي لبنـان والكويـت، لم تكـن أي دولـة عربيـة قـد عرفـت أي نظـام ديمقراطـي حقيقـي منـذ حصـول الـدول العربيـة عـلى اسـتقلالها. في لبنـان ورغـم القيـود العديـدة والانتقـاد الدائـم لنظـام المحاصصـة الطائفيـة فإنهـا كانـت الدولـة العربيـة الوحيـدة التـي تشـهد انتخابـات منتظمـة منـذ نهايـة الحـرب الأهليـة وفـق اتفاقيـة الطائـف 1990، وفي الكويـت شـهد العقـد الأول

137 - Ibid. pp. 5-7

مـن الألفيـة الثالثـة وجـود برلمـان قـوي قـادر عـلى محاسـبة الحكومـة، لكـن مـا لبثـت التجربـة أن انهـارت سريعًـا. هنـا كان السـؤال الدائر بين علـماء السياسـة المهتمين بدراسـة ظاهـرة التحـول الديمقراطـي والعولمة هـو «لمـاذا لا توجـد أي ديمقراطيـة عربيـة؟» الحقيقـة أن هـذا السـؤال نتجـت عنـه افتراضـات عديـدة بـين الأكاديميـين العـرب والغربيـين أيضًـا تفـترض «الاسـتثناء العـربي»، أي أنـه وباختـلاف التفسـيرات لعـدم وجود تحـول ديمقراطـي في العـالم العـربي بـين أسـباب دينيـة، مثـل القـول بـأن الإسـلام ديـن يحتـوي عـلى قيـم تعـادي الديمقراطيـة، وأسـباب ثقافيـة، تدعـي أن الثقافـة العربيـة تعـادي قيـم التعدديـة، أو أسـباب هيكليـة تتعلـق بعامـل البـترول وأثـره عـلى إفسـاد أي تجربـة للتحـول الديمقراطـي في العـالم العـربي، فـإن خلاصـة هـذه الدراسـات كانـت أن المنطقـة العربيـة اسـتثناء وأنـه مـن غـير المتوقـع أن تلحـق بموجـات التحـول الديمقراطـي سـالفة الذكـر[138].

يـرى لاري دايمونـد، أن فرضيـة الاسـتثناء العـربي خاطئـة، لكنـه يقـر في الوقـت نفسـه بـأن ثمـة عقبـات كثـيرة تقـف في طريـق التحـول الديمقراطـي في العـالم العـربي، حيـث أن طريقـة تركيـب الـدول العربيـة منـذ اسـتقلالها تقـف ضـد أي فرصـة حقيقيـة للتحـول الديمقراطـي، فعامـل البـترول والدولـة الريعيـة والقبضـة القويـة للأجهـزة الأمنيـة

138 - Diamond, Larry. “Why Are There No Arab Democracies?” Journal of Democracy 21.1 (2010): 93-104.

والاستخباراتية، فضلًا عن العوامل القبلية والطائفية بالإضافة إلي الدعم الغربي للسلطويات العربية كلها تقف ضد فرص هذا التحول الديمقراطي، ختم دايموند دراسته الشهيرة، بأن فرص الديمقراطية في العالم العربي تظل قائمة حال تحولت دولة واحدة فقط ديمقراطيًّا لأن ذلك من شأنه أن يحدث تأثير «الدومينو» فتتحول بعدها باقي الدول في موجة جديدة من الديمقراطية العربي[139].

في البحث الذي أجراه الباحث واستخدم فيه تحليل المضمون التأويلى اكتشف أن الفترة بين 2005 و2010 شهدت تزايدًا في الكتابات الأكاديمية العربية والغربية التي أصبحت تتوقع التغير في العالم العربي وهو ما كان بالفعل في العام 2011 باندلاع الثورتين التونسية والمصرية ونجاحهما في الإطاحة بن علي وحسني مبارك على التوالي، ورغم أن أنظمة أخرى قد تساقطت، فذهب علي عبد الله صالح في اليمن والقذافي في ليبيا فإن الدولتين قد سقطتا في هوة الحروب الأهلية والحروب بالوكالة بين أطراف إقليمية ودولية متصارعة على النفوذ في الشرق الأوسط. بقي نظام بشار الأسد ولكن تدمرت سورية بينما سحقت انتفاضة البحرين سريعًا بواسطة دول الخليج العربي وعلى رأسها المملكة العربية السعودية[140].

139 - Diamond. Ibid.

140 - Abd Rabou, A. (2019). Arab Spring and the issue of democracy:

باستثناء تونس، تخلص معظم الدراسات الأكاديمية التي صدرت بعد العام 2013 وتحديدًا بعد الإطاحة بمحمد مرسي من حكم مصر بواسطة تدخل عسكري مدعوم شعبيًّا، أن الثورات العربية قد فشلت، وأن نظرية الاستثناء العربي ما زالت صالحة[141]! إلا أن هذه الفرضية عليها قيدان: الأول أنه ليس من الدقيق أن ننعت هذه الثورات بالفشل، ذلك أن الإطاحة بأنظمة سلطوية متمترسة خلف تحصينات أمنية وعسكرية ومخابراتية ومدعومة دوليًّا ليس بالأمر الهين ولا يحدث التغيير في زمن قصير، ففي مصر على سبيل المثال، فإن الإطاحة بحسني مبارك وحل الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم بالإضافة إلى إيقاف العمل بدستور 1971 وحل البرلمان بغرفتيه ثم القبض على أقطاب النظام لا يمكن اعتباره فشلًا، بل هو نجاح على الأجل القصير، أما النجاح على الأجل الطويل فله حسابات أخرى سوف تتناولها الورقة فيما بعد. أما القيد الثاني على فرضية الاستثناء العربي، هو أنه حتى في الدول التي لم تنجح فيها الثورات في تأسيس نظام ديمقراطي يحترم التعددية وحقوق الإنسان فإن ثمة معادلة سياسية جديدة قد تم صياغتها بين الحاكم والمحكوم وهو ما ظهر جليًّا في انتفاضات

Where does Middle Eastern studies stand? In E. Mohamed & D. Fahmy (Eds), Arab Spring: Modernity, identity, and change. London: Palgrave Macmillan.

141 - Abd Rabou. Ibid.

الجزائـر والسـودان بالإضافـة إلى انتفاضـات الشـارع المسـتمرة في مـصر ولبنـان والعـراق.

يمكـن القـول إن ثـورات الربيـع العـربي وتوابعهـا حتـى الآن قـد أثبتـت مـا يـلي:

أولًا: أن الشـعوب العربيـة مثلهـا مثـل كل شـعوب العـالم تطمـح إلي الحريـة والديمقراطيـة وأنـه ليـس صحيحًـا أن الشـعوب العربيـة غـير قابلـة للدمقرطـة، فقـد أثبتـت أنـه حينـما تتوافـر الفـرص، فإنهـا تسـتغلها مهـما كلفهـا ذلـك مـن تضحيـات جسـدية أو معنويـة.

ثانيًـا: أن السياسـات الأمنيـة القمعيـة التـي تسـتخدمها معظـم الأنظمـة العربيـة لضبـط الجماهـير ومنعهـا مـن التعبئـة رغـم فعاليتهـا عـلى الأجلـين القصـير والمتوسـط، إلا أنـه وعـلى الأجـل الطويـل تفقـد هـذه السياسـات فاعليتهـا إمـا لأن ثمـن الخـروج عليهـا بالنسـبة إلى الجماهـير لا يصبـح فعـلًا راشـدًا قـادرًا عـلى موازنـة التكلفـة والفائـدة ولكنـه يصبـح انفجـارًا غـير عقـلاني لأن هـذه الجماهـير لم يعـد لهـا مـا تخـسره، وإمـا لأن انتفاضـة شـعب عـربي قـد يكـون ملهـمًا لشـعب عـربي آخـر فيكـسر الأخـير حاجـز الخـوف ويتمكـن مـن إجبـار النظـام عـلى الرحيـل أو عـلى الأقـل تقديـم تنـازلات.

ثالثًـا: أنـه ورغـم أن الدعـم الغـربي لمعظـم الأنظمـة العربيـة السـلطوية وطالمـا حافظـت الأخـيرة عـلى مصالـح الأولى قـد يحقـق

الفعاليـة لبعـض الوقـت، ولكـن هـذا الدعـم سـيظل مرهونًـا بقـدرة الأنظمـة العربيـة في المنطقـة الحفـاظ عـلى اسـتقرار نظمهـا السياسـية ولـو فشـلت الأخـيرة في هـذه المهمـة فـإن هـذا الدعـم قـد يتوقـف في أي وقـت ويصبـح بـلا قيمـة أمـام حركـة الجماهـير. بعبـارة أخـرى فـإن الدعـم الغـربي للنظـم العربيـة هـو دعـم مصلحـي بحـت وطالمـا تغـيرت هـذه المصلحـة، فـإن التضحيـة بالنظـم تكـون أسـهل مـما يعتقـد البعـض ولنـا في أمثلـة تونـس ومـصر والجزائـر المدعومـة بقـوة مـن المجتمـع الغـربي قبـل ٢٠١١ أمثلـة على محدوديـة دور هـذا الدعم الغـربي في الحفـاظ عـلى السـلطويات العربيـة.

القسـم الثـاني: الشـعبوية كعائـق للتحـول الديمقراطـي في العـالم العـربي

مـما لا شـك فيـه، أن الموجـة الشـعبوية التـي ضربـت العـالم أخـيرًا بمـا فيهـا حتـى الـدول الديمقراطيـة الغربيـة قـد أثـرت بقـوة عـلى فـرص التحـول الديمقراطـي في العـالم العـربي خاصـة وأنهـا جـاءت في وقـت تعاضـدت فيـه السـلطويات العربيـة بعـد انحسـار موجـات مـد ثـورات الربيـع العـربي التـي لم تكتمـل. في الولايـات المتحـدة والبرازيـل وإنجلـترا وصـل قـادة شـعبويون إلى السـلطة، الشـعبوية وهنـا لا تقـف مشـكلتها عـلى كونهـا اتجاهًـا «يمينـي» محافـظ فقـط، ولكـن مشـكلتها الرئيسـية أنهـا تعـادي القيـم الدسـتورية والقانونيـة والمؤسسـية التـي

قامت عليها الديمقراطية الليبرالية الغربية. ومن هنا يمكن لنا أن نسأل ببساطة لماذا ضربت الشعبوية بقوة في جنبات الأنظمة السياسية الغربية الديمقراطية؟

الحقيقة أنه وللإجابة على هذا السؤال فلا بد أن نفهم أزمة الديمقراطية الغربية. هذه الأزمة قد حللها باستفاضة عالم الاجتماع الإنجليزي «كولن كراوتش» في كتابه «ما بعد الديمقراطية» والصادر عام 2004 حينما تحدث عن الكيفية التي أفسد بها رأس المال قيم وسياسات ومؤسسات الدول الديمقراطية، فتحول صناع القرار إلي مجموعة من الوكلاء لأباطرة السوق من أجل تنفيذ أجندة الأخيرين السياسية وتحولت العملية الانتخابية من كونها عملية محاسبة وتقييم للسياسيين تتصارع فيها البرامج الانتخابية إلى عملية تسويقية يتم من خلالها بيع «صورة» المرشحين لا محتوى سياستهم، ما حول الناخب إلى مجرد مستهلك لبضاعة تسوق جيدًا[142].

وإذا ما أضفنا إلى كلام كراوتش الدور الكبير الذي أصبحت تلعبه المؤسسات العسكرية وصناعاتها وصفقاتها في عملية صنع القرار المحلية، يمكن فهم النتيجة ببساطة، فالرأسمالية قد فرغت العملية الديمقراطية من محتواها وقيمها وأصبحت الديمقراطية في

142 - Crouch, Colin. Post-democracy / Colin Crouch. Cambridge, UK; Malden, MA: Polity, 2004. Print. Themes for the 21st Century.

هـذه الـدول ليسـت أكـثر مـن غطـاء شرعـي لعمليـات فسـاد محترفـة ومنظمـة تقـوم بهـا الدوائـر الرأسـمالية المتحالفـة مـع السياسـيين المنتخبـين. كان مـن نتائـج كل ذلـك أن «الوعـد الديمقراطـي» والمتمثـل في توفـير الرعايـة الصحيـة والتعليميـة والبنيـة التحتيـة والتأمينـات الاجتماعيـة بـدأ يتهـاوى في أوروبـا وأمريـكا مـع ارتفـاع معـدلات البطالـة واتسـاع الهـوة بـين الطبقـات مـا ولـد حـركات قويـة مناهضـة للعولمـة الاقتصاديـة (احتلـوا وول سـتريت مثـلًا) ثـم ومـع تفاقـم أزمـة المهاجريـن واللاجئـين السياسـيين بـدأ الخطـاب اليمينـي الشـعبوي يحصـد الإعجـاب باعتبـاره مخرجًـا غـير تقليـدي لأزمـات الوعـد الديمقراطـي الـذي لم يتحقـق.

قام الخطاب الشعبوي الغربي على ثلاثة وعود رئيسية:

وعـد اقتصـادي: متمثـل في اتخـاذ إجـراءات حمائيـه للصناعـات المحليـة وتوفـير فـرص التوظيـف والاسـتثمار ومـن ثـم رفـع معـدل النمـو وتحسـين مسـتوى المعيشـة.

وعـد سـياسي: ويتمثـل في حسـن تمثيـل المواطنـين في عمليـة التشريـع والنيابـة وفتـح علاقـات مبـاشرة للاسـتماع إلى النـاس مبـاشرة وجعلهـم محـور صنـع القـرارات الداخليـة والخارجيـة، هـذا الوعـد يعـادي أحيانًـا وبوضـوح الترتيبـات الدسـتورية والقانونيـة وينتقـد وبشـدة المؤسسـات الديمقراطيـة التقليديـة القائمـة.

وعـد أمنـي: ويتمثـل في اتخـاذ المزيـد مـن الإجـراءات الصارمـة لتقييـد حركـة المهاجريـن (حتـى الشرعيـين منهـم) والانحيـاز إلى السـكان (الأصليـين)، فضـلًا عـن مكافحـة الجريمـة والإرهـاب. هـذا الوعـد يتضمـن تهديـدًا داخليًـا بالفـوضى أو الحـروب الأهليـة لـو تـم التخـلي عـن القائـد المتزعـم لهـذا التيـار الشـعبوي[143].

هـذه الوعـود لاقـت بعـض الصـدى لـدى جمهـور الناخبـين في العديـد مـن الـدول الغربيـة ولا سـيما في الولايـات المتحـدة وإنجلـترا، فضـلًا عـن دول شرق ووسـط أوروبـا والبرازيـل. الحقيقـة أن اسـتمرار حصـول هـذا التيـار السـياسي الشـعبوي عـلى التأييـد مرهـون بقدرتـه عـلى تحقيـق وعـوده الثلاثـة هـذه مـن ناحيـة، وعـلى تحـدي الترتيبـات الدسـتورية والقانونيـة والمؤسسـات الديمقراطيـة في هـذه الـدول مـن ناحيـة أخـرى. وحتـى هـذه اللحظـة ورغـم بعـض النجـاح المؤقـت في تحقيـق بعـض الوعـود الاقتصاديـة، فإنـه وعـلى المـدى المتوسـط بـدأ يفشـل هـذا التيـار اليمينـي الشـعبوي في تحقيـق وعـوده، فتمثيـل النـاس وإشـعارهم أنهـم في مركـز صنـع القـرار بعيـدًا عـن مؤسسـات التمثيـل النيـابي التقليديـة (الديمقراطيـة المبـاشرة) لم يكـن أكـثر مـن وهـم، كـما أن الوعـود الاقتصاديـة لم تتحقـق حتـى اللحظـة، هـذا بالإضافـة إلى أن التحديـات الأمنيـة لم تقـل أو تختفـي كـما وعـدت الشـعبوية العالميـة.

143 - Forthomme, Claude. January 6, 2019. Populism's promises: Are Populist Leaders Delivering on Them? Impacter. shorturl.at/qzIM7 >

كـما أن الجمهـور الداعـم للشـعبوية اعتقـادًا منـه أنهـا تعمـل لصالحـه قـد ثبـت لـه بالدليـل القاطـع الخطـاب العنـصري الفـج للشـعبوية لأنهـا في النهايـة لا تعـبر سـوى عـن أفـكار يمينيـة. انتخابـات الكونجـرس الأمريـكي التـي جـرت العـام المـاضي وفـاز بهـا الديمقراطيون أظهـرت هـذا التوجـه الجديـد لـدى الناخـب الأمريـكي الـذي بـدأ في اكتشـاف زيـف بعـض وعـود ترامـب اليمينيـة الشـعبوية أو عـدم واقعيتهـا وقـد أوضـح محمـد المنشـاوي في ورقتـه «اليمـين الأمريـكي والمنطقـة العربيـة»، أن نتائـج هـذه الانتخابـات أظهـرت أن هنـاك ميـلًا شـعبيًّا واسـعًا للابتعـاد عـن الحـزب الجمهـوري خاصـة مـع حصـول الديمقراطيـين عـلى عـدد أصـوات إجماليـه يفـوق مـا حصـل عليـه الجمهوريـون بأكـثر مـن تسـعة ملايـين صـوت. حيـث لم تسـاعد الأرقـام الإيجابيـة للوضـع الاقتصـادي التـي تحققـت خـلال أول سـنتين لترامـب في الحكـم وهـو مـا خلـص إليـه المنشـاوي حيـث أن هـذه النتائـج تشـير إلى عـدم اكـتراث الناخبـين في معظمهـم بالأوضـاع الاقتصاديـة أو عـدم ربطهـا بالرئيـس ترامـب وسياسـاته، وتحديًـا لهـذا الصعـود الشـعبوي لترامـب فقـد وصـل في هـذه الانتخابـات ممثلـون للأقليـات والفئـات الأقـل حظًّـا أو ممثلـون للتيـارات اليسـارية[144].

يلاحـظ هنـا أيضًـا أن ترامـب ورغـم محاولاتـه المسـتمرة الانتصـار عـلى المؤسسـات الدسـتورية الديمقراطيـة في الولايـات المتحـدة

144 - محمـد المنشـاوي. اليميـن الأمريكـي والمنطقـة العربيـة. منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات. تحـت النشـر. ص ٦.

فـإن هـذه المؤسسـات مـا زالـت قـادرة عـلى كبـح جماحـه، ولعـل الإجـراءات الجاريـة حاليًّا لعـزل ترامـب _بغـض النظـر عـن نتيجتهـا_ عـلى خلفيـة تسريبـات محادثاتـه مـع الرئيـس الأوكـراني هـي أكـبر دليـل عـلى أن المؤسسـات الديمقراطيـة مـا زالـت فاعلـة رغـم محـاولات تفكيكهـا بواسـطة قـادة التيـارات الشـعبوية في الغـرب. ولعـل تتبـع شـعبية ترامـب يعطـي دلالـة واضحـة لبدايـة انحصـار شـعبيته، فكـما يبـين الشـكل (1) فإنـه وبعـد أن وصلـت شـعبية ترامـب إلى قمتهـا في عـام 2017 بعـد عـام واحـد مـن انتخابـه فـإن شـعبيته في 2018 قـد انخفضـت بـين كل مؤيديـه بمـن فيهـم مـن الجمهوريـين والبيـض الإنجيليـين.

FIGURE 1. Trump's Favorability Among Republican Base Groups
Percent who say their overall opinion of Donald Trump is mostly or very favorable.

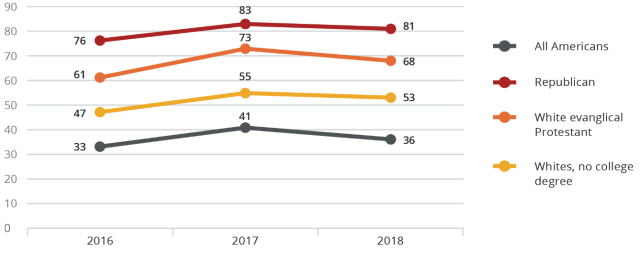

Sources: PRRI 2016 American Values Survey; PRRI 2017 American Values Survey; PRRI/The Atlantic 2019 Pluralism Survey.

هـذا ويوضـح الشـكل البيـاني 2 اسـتمرار انخفـاض شـعبية ترامـب في 2019

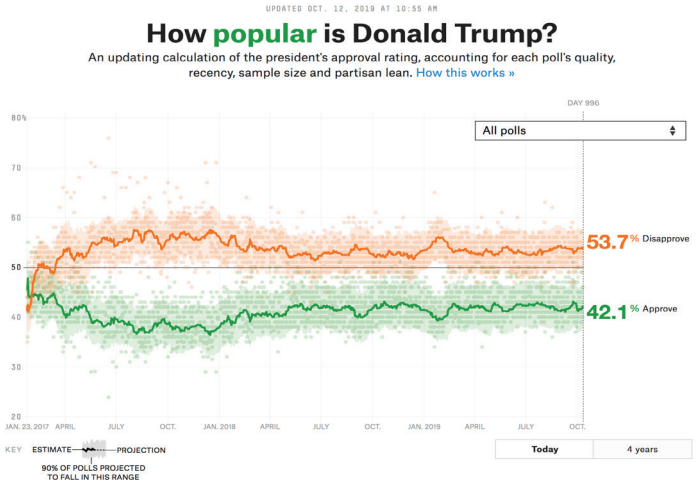

وبشـكل مماثـل في البرازيـل، فقـد أوضحـت الدراسـة التـي قـام بهـا توفيـق عبـد الصمـد أن صعـود بولسـونارو في البرازيـل والـذي اعتمـد عـلى نقـد السياسـات الاجتماعيـة والاقتصاديـة وعـلى الهجـوم عـلى اليسـار وتحميلـه مسـؤولية تراجـع الاقتصـاد والعجـز عـن مواجهـة الجريمـة، متبنيًـا خطابًـا مشـابهًا تمامًـا لخطـاب ترامـب المنتقـد بشـدة للمؤسسـات الديمقراطيـة، المعـادي للنسـاء واللاجئـين والملتـزم بالسياسـات اليمينيـة اقتصاديًّـا قـد بـدأ في الانحسـار بحسـب الدراسـة التـي قامـت بهـا شـبكة «برازيـل دو فاتـو» والتـي تظهـر

حالـة الارتبـاك والفـوضى التـي اتسـمت بهـا سياسـة بولسـونارو وفريـق حكومتـه، فيـما يخـص مخططاتـه الاقتصاديـة والاجتماعيـة مثـل خطـة إصـلاح المعاشـات، و قضايـا الفلاحـين بـلا أرض، ولطريقـة تدبـير تحالفـه السـياسي وتعاملـه مـع المعارضـة، لا سـيما بعـد تعيـين عسـكريين سـابقين كـوزراء وعـلى رأسـهم نائـب الرئيـس "هاميلتـون مـوارو-Ham-ilton Mourao"، الـذي أبـدى مـن خـلال تصريحـات سـابقة عـلى فـوز بولسـونارو عـن اسـتعداده للقيـام بانقـلاب عسـكري للسـيطرة عـلى الحكـم».[145]

كذلـك فقـد انحـصرت شـعبيته بقـوة خـلال السـتة أشـهر الأولى مـن فـترة حكمـه كـما يوضـح الشـكل 3 مـع وجـود 32 % مـن الناخبـين البرازيليـين يـرون أن أداءه سـيئ أو مقيـت.

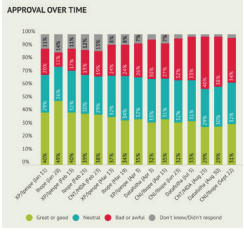

ورغـم تلـك الأزمـات التـي تعـاني منهـا الشـعبوية في الولايـات المتحـدة والبرازيـل فـإن تأثيرهـا امتـد إلى العـالم العـربي، ففـي مـصر

145 - توفيـق عبـد الصمـد. اليميـن المتطـرف فـي البرازيـل. منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات. تحـت النشـر. ص ١١.

والسعودية بشكل رئيسي وفي لبنان بشكل أقل، تصاعدت السياسات الشعبوية اليمينية. ففي الحالة المصرية تصاعدت الشعبوية مدعومة بتقلب في المزاج العام المصري وخصوصًا بعد التدخل العسكري المؤيد شعبيًّا في يوليو 2013 والذي أطاح بحكم الرئيس الراحل محمد مرسي والذي أعقبه تفويض يوليو 2013 والذي كان تجسيدًا حيًّا للشعبوية السياسية المصرية والتي ما زالت تحكم النظام الحالي في مصر حيث الانحياز التام للسياسات اليمينية اقتصاديًّا واحتقار واحتكار العمل السياسي والعام مصحوبًا بخنق الأحزاب السياسية والمجتمع المدني والسيطرة المطلقة على الإعلام والإنتاج الفني. يستخدم النظام المصري فزاعتي الإخوان والإرهاب من أجل استمرار حشد المواطنين ضد أي انفتاح سياسي وفي ذلك فقد انحاز الكثيرون من النخبة المثقفة وبعض الأكاديميين إلى أطروحات السلطة السياسية في مصر معززين من موقعها. كذلك فقد احتوت هذه السياسات الشعبوية معاداة السياسة والسياسيين والزج بالكثير منهم في السجون على ذمة قضايا معظمها متعلق بالانضمام إلى جماعة محظورة والترويج للإشاعات وتهديد الأمن القومي.

كان للتحالفات الإقليمية والدولية دور كبير في تعضيد الشعبوية المصرية فحصل النظام المصري على دعم الحلفاء في المملكة العربية

السعودية وفي الإمارات بالإضافة إلى الولايات المتحدة وروسيا. هذا الدعم لم يقتصر فقط على الدعم السياسي والإعلامي في المحافل الدولية، ولكنه امتد ليشمل أيضًا الدعم المالي للنظام المصري ما عزز فرص بقائه وسيطرته حتى الآن[146].

لكن ورغم تلك القبضة الحديدية فإن مظاهرات سبتمبر 2019 في مصر ورغم أنها لم تغير الكثير من بنية النظام السياسي حتي الآن فإنها أجبرت النظام على تقديم بعض التنازلات الاقتصادية وغيرت قليلًا من رسالته الإعلامية والسياسية والأهم من كل ذلك أن هذا الحراك يؤكد أنه لا يجب أن نتحدث بثقة عن سيطرة النظام أو انقلاب المزاج العام ضد الديمقراطية، فما نشهده الآن هو تقلب جزئي في المزاج العام لأن ما وعدت به الشعبوية العالمية ولم يتحقق، أيضًا وعدت به الشعبوية المصرية ولم يتحقق حتى الآن ومن ثم يمكن توقع تصاعد الرفض أو على الأقل المحاسبة لهذه الشعبوية المصرية.

أما في المملكة العربية السعودية وهي الدولة التي ساهمت وبقوة في دعم تصاعد السلطويات العربية في مواجهة انتفاضات الشارع العربي، فإنه ورغم التحديثات الاجتماعية والثقافية الجذرية التي شهدتها المملكة منذ تولي محمد بن سلمان ولاية العهد فإن

146 - شيماء الشرقاوي. ما بين الديني والسلطوي: في البحث عن أسباب ومظاهر صعود اليمين في مصر بعد ثورة يناير 2011. منتدى البدائل العربي للدراسات. تحت النشر.

عـدم قـدرة اليمـين الشـعبوي السـعودي عـلى الانفتـاح بشـكل سـياسي مـوازٍ، فضـلًا عـن إعـادة هيكلـة الاقتصـاد السـعودي ومـا يشـمله ذلـك مـن تحميـل المواطـن السـعودي فاتـورة هـذا الإصـلاح بالإضافـة إلى التصـادم مـع رجـال الديـن[147]، مـن المرجـح أن يـؤدي إلى عـدم اسـتقرار النظـام عـلى المـدى الطويـل وخصوصًـا إذا أخذنـا في الاعتبـار التـورط السـعودي في اليمـن فضـلًا عـن عـدم الاسـتقرار الإقليمـي وتذبـذب الموقـف الأمريـكي الداعـم للسـعودية.

القسـم الثالـث: الخطابـات المقاومـة للشـعبوية وفـرص تأثيرهـا عـلى مسـتقبل الديمقراطيـة في العـالم العـربي

إذًا فعـلى الرغـم مـن هـذا التصاعـد الشـعبوي وتأثـيره السـلبي عـلى عمليـة التحـول الديمقراطـي والحوكمـة في العـالم العـربي، فـإن هـذه الشـعبوية ليـس فقـط عليهـا قيـود وبـدأت تخـسر بعضًـا مـن الشـعبية، ولكـن الأهـم أن خطابـات ديمقراطيـة دوليـة وإقليميـة تصاعـدت خـلال عـام 2019 مـا أعطـى دفعـة وأمـلًا حقيقيًّـا للتغـير.

ففـي فرنسـا وعـلى إثـر فـرض الحكومـة الفرنسـية ضرائـب جديدة عـلى الوقـود، فقـد اندلعـت المظاهـرات التـي عرفـت بـ»السـترات الصفـراء» والتـي تحـدت كل التقسـيمات الاجتماعيـة والسياسـية التقليديـة، وثـارت عـلى تراكـمات السياسـات الاقتصاديـة الفرنسـية

147 - عمر سمير خلف. اليمين في السعودية وقضايا المنطقة العربية. منتدى البدائل العربي للدراسات. تحت النشر.

التي حدَّت من القوة الشرائية للمواطن الفرنسي. ومثل الانتفاضات والحراكات المشابهة، لا توجد قيادات موحدة ولا خطاب موحد ثابت لهذه الحركة، فالحركة تبدو عفوية وهدفها هو تحسين القدرة الشرائية للمواطن الفرنسي بعيدًا عن أي تحزبات أو انقسامات أيديولوجية تقليدية.

كان لحركة السترات الصفراء تأثير قوي على الرأي العام ألأوروبي فقد اندلعت مظاهرات مشابهة في معظم دول غرب ووسط أوروبا، كذلك فقد كان لخطاب هذه الحركة المتمرد على السياسات الرأسمالية صدى قوي في العالم العربي، ففي حين حاولت النخب السياسية والاقتصادية العربية التقليل من أهمية الاحتجاجات تارة، أو اتهام القوى الإسلامية بإثارتها تارة أخرى، أو حتى التركيز على عنف قوات الأمن الفرنسية تجاه المتظاهرين لتبرير عنف الأمن في الدول العربية فمما لا شك فيه أن لهذه الحركة تأثيرًا قويًّا وملهمًا لحركات مشابهة اندلعت في مصر ولبنان وعبرت بالأساس عن رفض السياسات الرأسمالية المصحوبة بالفساد والمحسوبية[148].

فالحركة هي تعبير عن معاناة الطبقات المتوسطة فما دونها من سياسات العولمة الرأسمالية القاسية التي ترفع يد الدولة عن القيام بوظائفها الاجتماعية وتطلق يد السوق ومجتمعات رجال الأعمال للتنافس اقتصاديًّا. كذلك فقد عبرت هذه الحركات عن

148 - غير معروف. ثورة «الميادين الصغيرة»: نحو إعادة تشكيل الخريطة السياسية والاجتماعية في فرنسا. منتدى البدائل العربي للدراسات. تحت النشر.

الضعف البنيوي في المؤسسات الديمقراطية للدولة الفرنسية[149].

إقليميًا أيضًا تصاعدت الخطابات الديمقراطية، ففي السودان تمكن الحراك الشعبي منذ عام 2013 في تطويره خطاب الديموقراطية وأطره التنظيمية ومطالبه للتغيير حتى تمكن أخيرًا في عام 2019 من إسقاط حكم عمر البشير. انفجر هذا الحراك لأسباب مشابهة تمامًا إلى أسباب قيام الانتفاضات العربية حيث ارتفاع معدلات البطالة وتردي مستويات المعيشة بالإضافة إلى غلق المجال السياسي ما أدى إلى انفجار المظاهرات المطالبة بسقوط النظام، تمكنت من خلالها منظمات المجتمع المدني وباقي القوي السياسية من كسر احتكار الدولة للسياسة. كان التطور الأهم في الحالة السودانية كما تشير عزة مصطفى هو أن نتيجة هذا الحراك كان تكوين قاعدة من الشباب تمكنت من تطوير إطار مفاهيمي مشترك للتغيير وتمكنت من خلاله من عبور حواجز الأحزاب. نجاح هذا الحراك يمكن إيعازه إلى مجموعة من الأسباب على رأسها انطلاقه من المحافظات وليس من العاصمة، بالإضافة إلى التأييد الشعبي لهذا الحراك نظرًا إلى فقدان النظام لحاضنته الاجتماعية، فضلًا عن تخطيه للأيديولوجيات وقدرته على جمع الأحزاب ومنظمات المجتمع المدني معًا، بالإضافة إلى تأييد بعض الطرق الدينية الصوفية له[150].

149 - المرجع السابق

150 - عزة مصطفي. حراك السودان: خطاب قديم لم يمت، وجديد في طور التخلق.

هـذا الخطـاب الناجـح في السـودان تمكـن مـن هزيمـة الخطـاب الإسـلامي الـذي تبنتـه الدولـة السـودانية منـذ انقـلاب 1989 وهـو خطـاب علـماني ديمقراطـي حتـى لـو تخفـى وراء مطالـب الدولـة «المدنيـة» للتوافـق مـع المـزاج الشـعبي شـديد الحساسـية مـن العلمانيـة، فهـو خطـاب يسـتبعد أي شـعارات أو رمـوز دينيـة أو طائفيـة أو عرقيـة[151].

في تونـس كذلـك، ورغـم كل الضغـوط الإقليميـة سياسـيًّا واقتصاديًّا ودعائيًّـا سـواء مـن دول الخليـج أو مـن مـصر، فضـلًا عـن التطـورات الداخليـة في ليبيـا، فـإن التجربـة الديمقراطيـة التونسـية مـا زالـت قـادرة عـلى الصمـود، ومـا زال التيـار الديمقراطـي في تونـس والمتمثـل بالأسـاس في منظمـة الشـغل وباقـي منظـمات المجتمـع المـدني بالإضافـة إلى أحـزاب اليسـار التونـسي قـادرًا عـلى الحفـاظ عـلى الخطـاب الديمقراطـي، إلا أن ورقـة نصـاف براهيمـي[152] تضـع بعـض المحاذيـر عـلى الإفـراط في التفـاؤل بخصـوص التجربـة التونسـية خاصـة مـع تصاعـد اليمـين في تونـس والتقـارب بـين اليمـين الدينـي (تيـار النهضـة) واليمـين العلـماني التحديثـي (نـداء تونـس). والحقيقـة أن هـذا التقارب الـذي تتناولـه نصـاف بحـذر، بقـدر مـا يمكـن أن ننظـر إليـه بعـين

منتدى البدائل العربـي للدراسـات. تحـت النشـر

151 - المرجع السابق.

152 - نصـاف براهيمـي. دراسـة حـال صعـود اليمـين فـي تونـس. منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات. تحـت النشـر.

الحظر باعتباره تحالفًا يمينيًّا، فإنه يمكن النظر إليه أيضًا باعتباره معبرًا عن قدرة ورغبة التيارات السياسية التونسية في الإبقاء على عنصر «التوافق» بين العلمانيين والإسلاميين وهو أهم أسباب نجاح التجربة التونسية حتى الآن مقارنة بالتجربة المصرية مثلًا.

بعبارة أخرى، فإن الحكم على التجربة التونسية لا يجب أن يختزل في صعود اليمين، فالاختبار الحقيقي يظل مدى قدرة هذا اليمين على الحفاظ على التجربة الديمقراطية وعلى التوافق كحد أدنى لازم لاستمرار الديمقراطية في البلاد. ولعل فوز الرئيس قيس بن سعيد أخيرًا في تونس هو تعبير عن ضرورة متابعة هذا التوازن في التجربة التونسية، فمن ناحية يمكن الاحتفاء بانتخاب أستاذ جامعي بشكل ديمقراطي مثل التجربة الثالثة لتسليم الحكم بشكل سلمي في أمر نادر الحدوث في تاريخ العالم العربي، ولكن ومع هذا التقدير للتجربة الديمقراطية التونسية، يجب أن يبقى حد أدنى من الحذر والمتابعة كون تصريحات قيس سعيد بها بعض الملامح الشعبوية، والأهم أنه قادم من خارج التيارات والأحزاب السياسية في مؤشر واضح على قناعات الناس بعدم جدوى هذه الأحزاب أو بعدم قدرتها على تقديم إجابات واضحة للمصاعب الاقتصادية التي يعاني منها المواطن التونسي وهو ما قد يشكل مستقبلًا لولادة شعبوية في الشارع العربي.

القسم الرابع: مستقبل الديموقراطية في العالم العربي

أظهـرت دراسـات مـشروع «الحوكمـة والتحـول الديمقراطـي في العـالم العـربي» أنـه وبقـدر تحديـات تصاعـد التيـارات الشـعبوية إقليميًّـا ودوليًّـا وبقـدر سـطوع نجـم الخطابـات السياسـية المعاديـة للديمقراطيـة، فـإن هزيمـة الانتفاضـات العربيـة أو ضيـاع آمـال التحـولات الديمقراطيـة في العـالم العـربي هـو أمـر غـير محسـوم، فمـن ناحيـة وبقـدر اسـتمرار الشـعبوية المدعومـة بتصاعـد التيـارات اليمينيـة دوليًّـا، بقـدر تعـرض هـذه التيـارات لانتقـادات لاذعـة لعجزها عـن تحقيـق وعودهـا مـن ناحيـة، ولتناقضاتهـا الداخليـة مـن ناحيـة أخـرى، فرغـم تصاعـد التيـارات اليمينيـة في الولايـات المتحـدة والمملكـة المتحـدة والبرازيـل ووسـط وشرق أوروبـا بقـدر تصاعـد انتقـادات داخليـة ومقاومـات مؤسسـية لهـذه التيـارات مصحوبـة بتصاعـد خطابـات وتيـارات ديمقراطيـة مقاومـة للسـلطوية في دول أخـرى مثـل فرنسـا. أمـا إقليميًّـا، فالتصاعـد السلطوي/الشـعبوي/اليميني والـذي بـدأ منـذ العـام 2013، بـدأ في التراجـع بشـدة منـذ عـام 2018 مصحوبًـا بحـراكات ناجحـة في الجزائـر والسـودان وأخـرى مـا زالـت آخـذة في التشـكل والضغـط في لبنـان والعـراق ومـصر وإيـران فضـلًا عـن اسـتمرار التجربـة الديمقراطيـة التونسـية رغـم كل الصعوبـات والضغـوط التـي واجهتهـا.

وحتى يمكننا أن نضع ملامح للتحولات الديمقراطية المحتملة في المنطقة العربية في ضوء هذه المعطيات، علينا أولًا مراجعة أهم سمات مرحلة ما بعد الانتفاضات العربية التي بدأت في عام 2011 وحتى اللحظة والتي يمكن تلخيصها في:

أولًا: تعاظم دور المؤسسات العسكرية والأمنية

في الفترة بين عامي 2011 و2019 فإن أبرز سمات التطور السياسي لمعظم الدول العربية كانت في تعاظم دور المؤسسات العسكرية والأمنية في عملية صنع القرار السياسي. حدث ذلك في مصر بعد إزاحة حكم الإخوان المسلمين عن السلطة في 2013، كذلك قد حدث الشيء نفسه في الجزائر وخاصة في السنوات الأخيرة لحكم بوتفليقة حيث هيمنت المؤسسة العسكرية على عملية صنع القرار في ظل تواجد رئيس ميت سريريًّا طوال فترة حكمه الأخيرة، الأمر نفسه ينطبق على السودان في السنوات الأخيرة لحكم البشير في السودان وفي دول الخليج العربي ولا سيما المملكة العربية السعودية والإمارات على خلفية الحرب في اليمن من ناحية، وعلى خلفية المواجهة مع إيران من ناحية أخرى، هذا بالإضافة إلى ترتيبات نقل السلطة إلى محمد بن سلمان والتي تطلبت دورًا أكبر للمؤسسات الأمنية والعسكرية. إذا ما أضفنا إلى كل ذلك تصاعد عمليات العنف والإرهاب في العالم العربي، فضلًا

عـن الانهيـارات الداخليـة، يمكـن تفهـم الكيفيـة التـي سـيطرت بهـا هـذه المؤسسـات الأمنيـة والعسـكرية عـلى عمليـة صنـع القـرار العـربي بشـكل يفـوق كثـيرًا مـا كان قائمًـا قبـل 2011، وهـو محـدد لا بـد أن نأخـذه في الاعتبـار قبـل رسـم أي سـيناريو مسـتقبلي.

ثانيًا: الدولة الوطنية الهشة

رغـم أن أهـم عنـاصر الخطـاب السـياسي اليميني/الشـعبوي الـذي تصاعـد بعـد تراجـع الانتفاضـات العربيـة هـو خطـاب الحفـاظ عـلى «الدولـة الوطنيـة» مـن الإرهـاب والفـوضى والدمـار والتدخـلات الخارجيـة، لكـن المتأمـل لخريطـة السياسـة العربيـة يمكنـه بسـهوله رؤيـة أن هـذه الدولـة الوطنيـة المزعومـة لم تتحقـق بقمـع الانتفاضـات العربيـة ورغـم الاعتـماد عـلى المؤسسـات الأمنيـة والعسـكرية كركيـزة لصنـع القـرار السـياسي في العديـد مـن الـدول العربيـة فـإن هـذه الدولـة الوطنيـة ظهـرت أكـثر هشاشـة عـمَّا كانـت عليـه قبـل الانتفاضـات العربيـة في 2011، فمـن ناحيـة واصلـت هـذه الدولـة المزعومـة عجزهـا عـن توفـير الأمـن لمواطنيهـا، ولم يكـن الاعتـماد عـلى المؤسسـات الأمنيـة والعسـكرية سـوى سـبب للمزيـد مـن التراجعـات الأمنيـة، حيـث أصبحـت الكثـير مـن الـدول العربيـة عاجـزة عـن توفـير الأمـن لمواطنيهـا، بـل إنهـا أصبحـت عرضـة للمزيـد مـن التدخـلات الخارجيـة.

ثالثًا: تأميم السياسة وتحرير الاقتصاد

رغم أن السياسات النيوليبرالية في العالم العربي يمكن إرجاعها إلى سبعينيات القرن الماضي، فإن هذه السياسات ظهرت بشكل أكثر شراسة خلال السنوات السبع الماضية، فالدولة الوطنية في العالم العربي فضلًا عن عدم قدرتها على الوفاء بالتزاماتها الاجتماعية والاقتصادية في وقت تطالب فيه مواطنيها بالاعتماد على أنفسهم دون تقديم أي مساحات سياسية تمكن هؤلاء المواطنين من تنظيم أنفسهم سياسيًّا للوصول إلى الموارد. بعبارة أخرى فإن الدولة العربية التي تصر (شكلًا) على تحرير الاقتصاد والتخلي عن دورها الاجتماعي ترفض في الوقت نفسه تحرير المساحة السياسية. هذه المعادلة المقلوبة أدت إلى تشويه كل من المساحتين الاقتصادية والسياسية معًا، فالاقتصاد الرأسمالي العربي هو في الواقع اقتصاد «رأسمالية المحاسيب»[153]، حيث لا منافسة حرة في السوق، مع السماح لعدد محدود من النخب والمؤسسات باحتكار السوق إنتاجًا وتوزيعًا وفي المقابل فإن هذا النموذج التحريري المشوه ارتبط أيضًا بنموذج سياسي أكثر تشوهًا لا يسمح للمواطنين بالتمثيل أو المشاركة في صنع القرار.

153 - Lisa Anderson. 2018.Bread, Dignity and Social Justice: Populism in the Arab World. Philosophy and Social Criticism. Vol. 44(4). Pp. 478-490

كانت الدولة الوطنية قبل 2011 تقدم معادلة أكثر اتساقًا، حيث أنها كانت تؤمم المساحات السياسية وفي المقابل تقدم الدعم الاجتماعي من توظيف أو إعانات أو دعم السلع الأساسية أو المحروقات، هذه المعادلة المشوهة أدت إلى استمرار المطالب الشعبية إما بعودة الدعم وإما بتحرير السياسة وهو أمر من المتوقع أن يستمر خلال السنوات القليلة القادمة، وما لم تقدم النظم العربية إجابات واضحة على هذه المطالبات فإنها ستستمر وستتصاعد في شكل احتجاجات أو إضرابات أو حتى الانفجار واللجوء حتى إلى العنف.

رابعًا: تزايد الوعي السياسي والثقافي

كذلك فيعد المكسب الأفضل منذ عام 2011 وحتى الآن، أنه وبينما تراجعت المكاسب السياسية والاقتصادية للانتفاضات العربية خلال السنوات القليلة القادمة، فإن مقدار الوعي السياسي والثقافي لدى المواطن العربي قد ارتفع بشكل واضح. فسياسيًّا، أصبح المواطن العربي أكثر معرفة بمعاني الدستور والانتخابات والعمل الحزبي، كذلك ففي الدول التي تنتشر بها السياسات الطائفية أو القبلية، فإن الحراكات الأخيرة تثبت قدرة المواطن العربي العادي على تجاوز التمترس خلف الشعارات والرموز الطائفية، والسعي نحو كسر احتكار الطائفة أو القبيلة لعملية توزيع الموارد والقيم

لتحقيق المواطنة الكاملة المستندة إلى الحقوق القانونية والدستورية لا الترتيبات الطائفية أو القبلية. كذلك فهناك هبة ثقافية واضحة لمواضيع حقوق المرأة والأقليات، وتجاوز الدور الرجعي لرجال الدين، وكل هذه التحولات هامة للغاية نحو توفير أرضية ثقافية وقيمية لأي تحولات ديمقراطية قادمة.

سيناريوهات المستقبل:

في ضوء هذه السمات، فإن هناك ثلاثة سيناريوهات رئيسية متوقعة على الأجلين القصير والمتوسط (بين عامين وأربعة أعوام من الآن).

السيناريو الأول: هو أن تندلع خلال تلك الفترة موجة جديدة من الانتفاضات العربية مشابهة تمامًا لموجة انتفاضات 2010/ 2011، حيث يتجمع المواطنون بأعداد كبيرة في الميادين والشوارع الرئيسية مضربين عن العمل ومعلنين العصيان العام ولا يقبلون بالحلول الوسط أو الإصلاحات فتبدأ موجات عنف من الأنظمة الحاكمة تؤدي إلى تصاعد المواجهات حتى يتم إجبار رموز الأنظمة الحاكمة على الاستقالة أو الإقالة. مثلما كان الوضع في 2011، تبدأ هذه الانتفاضات حتى تنجح في دولة فيحدث تأثير «الدومينو» في باقي أنظمة الدول العربية. من المتوقع حال حدوث هذا السيناريو أن تكون هذه المواجهات بين الأنظمة والشعوب العربية أكثر عنفًا ودموية من 2011.

السيناريو الثاني: وهو أن تتراجع هذه الانتفاضات الحالية في لبنان ومصر والعراق وتنتكس التحولات الديمقراطية في السودان والجزائر وتعود الدول العربية إلى المربع صفر، فتشهد الدول العربية موجات جديدة وأكثر شراسة من القمع والاعتقالات وقد يصاحبها مزيد من الصراعات الطائفية مذهبية كانت أو قبلية أو عرقية.

السيناريو الثالث: ويتمثل هذا السيناريو في استمرار هذه الانتفاضات الحالية في العالم العربي ولكن بشكل محدود بحيث لا تنهزم ولكنها لا تنتصر أيضًا، ولكن تجبر الأنظمة السياسية على تقديم بعض التنازلات أو الإصلاحات السياسية والاقتصادية المحدودة. وفقًا لهذا السيناريو قد تسعى بعض الأنظمة العربية إلى تعديل بعض من سياستها الأمنية القمعية، وقد تتيح بعض مساحات التعددية المقيدة مع تقديم بعض التدعيمات الاقتصادية والاجتماعية لمواطنيها.

الحقيقة أن الورقة تتوقع أنه خلال الأربع سنوات القادمة فإننا سوف نشهد خليطًا من السيناريوهين الأول والثالث. بعبارة أخرى، فمن غير المرجح هزيمة هذه الانتفاضات والعودة إلى المربع صفر. صحيح أنه قد تستخدم بعض الأوراق التقليدية في قمع أو التحايل على الحراك اللبناني أو العراقي ولا سيما ورقة الطائفية،

وصحيح أنه قد لا يحدث حراك جديد في مصر خلال العام أو العامين القادمين، وصحيح أيضًا أنه قد يتم التحايل على مسار الانتقال الديمقراطي الحالي في الجزائر والسودان، لكن إن حدثت هذه التراجعات فستكون مؤقتة ولن تلبث أن تهدأ فتنفجر مجددًا، لأن خفوت الانتفاضات العربية أصبح فقط مرهونًا بقدرة أنظمتها على تقديم إصلاحات سياسية واقتصادية وأمنية جذرية، وبالتالي فإن تقديم المسكنات، أو التلاعب بأوراق القبلية والعصبية والطائفية أو في الاعتماد بشكل كلي على القبضة الأمنية لم يعد مجديًا في التغلب على انتفاضات الشارع العربي.

إذًا، فالمتوقع خلال السنوات القليلة القادمة إما حالة ثورية جديدة تعيد تشكيل المعادلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المنطقة العربية وإما ضغوطات مستمرة للشارع قد تهدأ أحيانًا ثم تعود إلى الانفجار مرة أخرى حتى يتم إجبار الأنظمة العربية على تقديم تنازلات معتبرة تتمكن من تحقيق المطالب الأساسية للمواطن العربي تحقيق أيًّا من هذين السيناريوهين المذكورين أو المزج بينهما يتوقف على العوامل الخمسة التالية:

أولًا: تغلبه الرؤية السياسية على الرؤية الأمنية لدى الأنظمة. فتصميم الأنظمة السياسية العربية على الرؤية الأمنية كإطار وحيد

لرؤيـة مطالـب الشـارع العـربي ومـا يسـتدعيه ذلـك مـن اسـتدعاء نظريـة المؤامـرة كخلاصـة وحيـدة لسـبب الحـراكات العربيـة ومـن ثـم الاعتـماد عـلى القبضـة الأمنيـة كأسـاس وحيـد لشرعيـة الأنظمـة العربيـة، مـن شـأنه أن يـؤدي إلى المزيـد مـن الغليـان في الشـارع العـربي وقـد يقـود ذلـك إلى انـدلاع موجـة ثوريـة جديـدة. وعـلى العكـس مـن ذلـك فـإن تغليـب الرؤيـة السياسـية والاسـتعداد لتقديـم تنـازلات سياسـية حقيقـة وممارسـة لعبـة السياسـة، باعتبارهـا عمليـة تفاوضيـة وليسـت معادلـة صفريـة مـن شـأنه أن يقـود إلى السـيناريو الإصلاحـي.

ثانيـا: الأوضـاع الدوليـة، فمـما لا شـك فيـه أن البيئـة الدوليـة سـيكون لهـا تأثـير كبـير عـلى مسـتقبل عمليـة التحـول الديمقراطـي في العـالم العـربي، فاسـتمرار انحصـار الموجـة الشـعبوية مع تزايـد الضغوط الشـعبية (مثـل انتفاضـة تشـيلي) مـن شـأنها دعـم موجـة جديـدة مـن الانتفاضـات العربيـة أو عـلى الأقـل التسريـع بتقديـم الأنظمـة العربيـة تنـازلات حقيقيـة تسـاعد عـلى التحـول الديمقراطـي. وعـلى النقيـض مـن ذلـك، فتمكـين النظـام الشـعبوي العالمـي مـن المعـادلات السياسـية الدوليـة مـن شـأنه أن يشـكل ضغوطًـا أقـل عـلى الأنظمـة العربيـة لتقديـم تنـازلات سياسـية وربمـا دعمهـا في مواجهـة الشـارع مـا سـيعيق تحقيـق تحـول ديمقراطـي سريـع في العـالم العـربي.

ثالثـا: قـدرة الحـراكات العربيـة عـلى التنظيـم وتخطي التقسـيمات

التقليدية سيكون أيضًا عاملًا حاسمًا سواء في التفاوض مع الأنظمة العربية على تقديم تنازلات حقيقية أو في دعم موجة ثورية حقيقية منظمة تتعلم من خيرات السنوات الماضية ولا تكرر أخطاء الماضي فلا تنتكس سريعًا وتتمكن من تعبئة الشارع خلفها.

رابعًا: النهج السلمي، حيث أن الإصرار على المقاومة أو المعارضة السلمية من شأنه حال توافر حراك منظم أن يجبر الأنظمة على التفاوض أو على الأقل سيضعها في ورطة، فكما يشير جورج فهمي، فإن اللجوء إلى العنف هو الوسيلة الأسهل لقمع أي حراك لأنه يعطي الأنظمة ذريعة لاستخدام العنف وتفريغ الحراك من مضمونه.[154]

خامسًا: تقديم بديل مؤسسي وليس شعبوي. ولعل هذا المحدد لا يقل أهمية أبدًا عن المحددات الثلاثة السابقة، فالحقيقة أنه لا بد أن نرى تصاعد الشعبوية سواء عالميًا أو إقليميًا، ليس فقط باعتبارها خيار الأنظمة، ولكنها أيضًا خيار الشارع في الكثير من الأحيان، فباستثناء التجربة التونسية والتي تم مأسسة المسار الثوري فيها سريعًا، فإن باقي الانتفاضات العربية قد اتخذ المسار الثوري فيها خيارًا شعبويًا معاديًا للمأسسة والتنظيم خطابًا

154 - جورج فهمي. الموجة الثانية من الانتفاضات العربية: خمسة دروس مستفادة. منتدى البدائل العربي للدراسات.
http://tiny.cc/opiwiz تم زيارة الموقع في 17 يناير 2020.

وسـلوكًا سياسـيًّا. كان الفـارق الوحيـد بـين شـعبوية الأنظمـة العربيـة بعـد 2011 وشـعبوية الشـارع الثـوري هـو أن شـعبوية الأنظمـة كانـت يمينيـة محافظـة، بينـما شـعبوية الشـارع كانـت يسـارية. الخـروج مـن هـذا الخيـار الشـعبوي والقـدرة عـلى مأسسـة الحـراكات سـتكون عامـلًا حاسـمًا أيضًـا في تحديـد ملامـح مسـتقبل التحـول الديمقراطـي في العـالم العـربي.

4 - النظام العربي في ظل التطورات الإقليمية والدولية
تغيرات في البنية والقضايا وجمود في المؤسسات والآليات

محمد العجاتي وزينب سرور[155]

155 - محمد العجاتي: باحث في العلوم الاجتماعية، وخبير في مجال المجتمع المدني، حاصل على درجة الماجستير في التنمية السياسية من جامعة القاهرة ــ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية عام 2001. خبرة في مجال إدارة منظمات المجتمع المدني، وكذلك تنسيق المشروعات، والمؤتمرات، وورش العمل، وفرق البحث. عمل كذلك مع عدد كبير من منظمات المجتمع المدني، الناشطة في مجال التنمية والحقوق من دول عديدة: مصر ــ المغرب ــ الاردن ــ السودان. خبير في مجال استشارات التخطيط الإستراتيجي، والتدريب، وبناء القدرات، وتقييم منظمات المجتمع المدني. متخصص في مجال الإصلاح السياسي في المنطقة العربية، والمجتمع المدني، والحركات الاجتماعية. قدم العديد من الأوراق العلمية في مؤتمرات بحثية، إلى جانب دراسات في عدد من الكتب المحررة والدوريات العلمية ومنها أوراق تحليل وتوصيات للسياسات العامة. كافة الأبحاث والمقالات منشورة على: http://elagati.wordpress.com/)

زينب سرور: باحثة مساعدة في منتدى البدائل العربي للدراسات وصحافية. طالبة ماجستير في كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية ورسالتها حول الخطاب الثقافي في الصحافة الثقافية الفصلية في لبنان. حاصلة على بكالوريوس في الصحافة المكتوبة من الجامعة اللبنانية عام 2012. عملت في عدد من الصحف اللبنانية والمجلات الثقافية. تعمل في مجال تحرير وتنقيح الكتب وكذلك التدقيق اللغوي، ولها مساهمات في العمل المدني المعني بشؤون الحق العام والسياسات العامة.

لم يكن ما جاء بعد ثورات الربيع العربي بداية لمرحلة جديدة بقدر ما مثَّل نتيجة لمرحلة سابقة ظلت تداعياتها مسيطرة على مسار الحراك، حيث سمح تراجع كفاءة الدولة في كل من تونس ومصر والانهيار الذي تعرضت له تلك المؤسسات ما قبل 2011 بصعود الخطاب اليميني والشعبوي بعد هذا الحراك.[156] فالحراك السياسي والاجتماعي في المنطقة العربية والذي بدا ذا ميل يساري _كما يظهر من مطالبه بصيغها المختلفة_ أفضى إلى صعود واضح لليمين سواء في شكله التنظيمي من خلال الصعود اللافت للأحزاب الشعبوية الوطنية واليمينية في كل من الانتخابات التشريعية العراقية واللبنانية الأخيرة، أو من خلال استخدام مفرداته وسياساته من قبل النخب السياسية الحاكمة كما هو الحال في مصر وتونس.[157] تراجع في أداء مؤسسات الدولة لا يرتبط بموجة الربيع العربي، بل يعود إلى طبيعة بناء الدولة العربية ذاتها. أما على مستوى السياسات فيرجعه البعض إلى مرحلة سقوط مشروع

156 - جورج فهمي، كيف صعد اليمين بنماذجه العربية المختلفة بعد 2011 رغم خطاب الربيع العربي المطالب بالحقوق السياسية والاجتماعية للشعوب العربية؟ ضمن كتاب «التغيرات في المنطقة العربية وأثر التطورات الدولية بين تيارات الشعبوية والأصوات البديلة»، يمكنكم إيجاد الكتاب عبر موقع كندل عبر الرابط الآتي

https://amzn.to/2oU3VVM

157 - المرجع السابق.

التحـرر الوطنـي، «ففـي مـصر يعـود الحديـث عـن ضعـف مؤسسـات الدولـة المصريـة، كـما يرصدهـا جـلال أمـين، إلى هزيمـة 1967»[158].

وكـما يصفـه وسـام سـعادة فقـد اكتسـب اليمـين العـربي الجديـد (الجديـد بمعنـى اختلافـه عـن يمـين الحـرب البـاردة الـذي يجـد معيـاره في «مناهضـة الشـيوعية» قبـل أي شيء آخـر) هوياتـه الثـلاث:

- تحميل الاشتراكية العربية وزر التأخر الاقتصادي الاجتماعي.

- اعتبـار أن أنظمـة التحـرر الوطنـي هـذه أو مخلفاتهـا تلعب دورًا إشرافيًّا في الوقـت نفسـه عـلى عمليـة تهيئـة المجتمعـات للديمقراطيـة، حـين تسـاعد النخـب الليبراليـة عـلى ذلـك.

- اعتبـار أن الشـعوب «أخطـأت» جوهريًّـا بتسريعهـا الأمـور، والانتفـاض، وعليهـا أن تدفـع الثمـن.[159]

وقـد تخطـى هـذا التوجـه النظـم الحاكمـة إلى بعـض التيـارات المعارضـة فعـلى سـبيل المثـال نجـد اليمـين الدينـي يتعامـل مـع قضيـة الديمقراطيـة والحقـوق السياسـية مـن منطلـق براغـماتي، فقـد كان الاسـتيلاء عـلى الدولـة القديمـة ضروريًّـا لتنفيـذ المـشروع الأيديولوجـي للإخـوان المسـلمين الـذي يركـز عـلى الهويـة، وبالتـالي بـذل الإخـوان الكثـير مـن الجهـود للتكيـف مـع متطلبـات الديمقراطيـة الانتخابيـة

158 - - جلال أمين، مصر والمصريون في عهد مبارك، دار ميريت، القاهرة 2011.

159 - وسـام سـعادة، مـا يحفّـز ومـا يعرقـل ولادة يميـن عربـي جديـد يحاكـي الموجـة الشـعبوية الصاعـدة عبـر العالـم، ضمـن كتـاب «التغيـرات فـي المنطقـة العربيـة»، مرجـع سـابق.

على الرغم من اقتصارها على الإجراءات والآليات الانتخابية. ولم يَنفذ فهمهم للديمقراطية إلى العمق الأيديولوجي لمواقف الإخوان الدينية والسياسية، وبقيت المفاهيم الدينية للدولة الإسلامية محورية في الرؤية السياسية لهم.[160] لم تولِ العملية السياسية في فترة صعود اليمين الديني الحقوق الاجتماعية والاقتصادية قدرًا كبيرًا من الاهتمام، فمثلًا القوانين القديمة المتعلقة بهذه الحقوق إما جرى الإبقاء عليها، وإما حلَّت محلها قوانين جديدة لا تقل استبدادًا.[161]

أولًا: التغيرات الدولية والإقليمية من صعود اليمين إلى تغيُّر موازين القوى

كتب كريستيان كاريل في مجلة «الفورين بولسي» مقالة بعنوان «ترامب الذي يساير التحول العالمي» عشية الانتخابات الأمريكية، يعتبر أن اليمين المتطرف يتخذ أشكالًا عدة، ليس فقط في أوروبا والولايات المتحدة، ولكن في بقية أنحاء العالم، مثل رودريجو ديوتوري في الفليبين، عبد الفتاح السيسي في مصر ورجب طيب أردوغان في تركيا. يرى كارفيل أيضًا في نتائج البريكست

160 - أشرف الشريف، مأزق مصر في مرحلة ما بعد مبارك، مركز كارنيغي للشرق الأوسط، 29/ 1/ 2014، http://bit.ly/31P0D4F

161 - شيماء الشرقاوي، ما بين الديني والسلطوي: في البحث عن أسباب ومظاهر صعود اليمين في مصر بعد ثورة يناير 2011، ضمن سلسلة دراسة حالة عن «التغيرات الدولية وتأثيرها على المنطقة العربية»، https://bit.ly/2lUc8Hi

تأكيدًا حقيقيًّا على مدى القوة التي أصبح عليها اليمين المتطرف في العالم.[162] وفي مصر كان السيسي هو المتحدث الرسمي باسم اللانخبوية، بما أن النخب السياسية التقليدية خسرت في أن تجد موطئ قدم لها في العملية السياسية.. كان السيسي القادم من خلفية عسكرية وليس له أي خبرة سياسية تُذكر، هو الرمز القادم من خارج النخبة السياسية.. بالتالي كان ترامب والسيسي كلاهما من خارج النخب السياسية التقليدية، أحدهما مدني والآخر عسكري.[163] وفيما يتعلق بموقف اليمين السلطوي من قضايا الإرهاب والنزاعات المسلحة، فتجدر الإشارة إلى أن صعود اليمين السلطوي في مصر ما بعد 30 يونيو كان مرتبطًا بتبنّيه خطاب الحرب على الإرهاب في مصر والتنسيق على مستوى إقليمي تحت مزاعم مواجهة الإرهاب في المنطقة العربية.[164]

وبناءً عليه، لم تكن تلك التغيرات التي شهدتها المنطقة العربية بمعزلٍ عن السياق العالمي، نقصد هنا صعود ترامب المفاجئ في الولايات المتحدة، نتائج البريكست والتي دفعت الكثير من المحللين والمعلقين السياسيين إلى الحديث عن حقبة جديدة

162 - Christian Caryl, We've Got to Face it: Trump is Riding a Global Trend, Foreign Policy, 26/ 9/ 2016, https://foreignpolicy.com/2016/09/26/weve-got-to-face-it-trump-is-riding-a-global-trend/

163 - المنطقة العربية بين التغيرات الداخلية والسياق العالمي، ضمن سلسلة «التغيرات الدولية وتأثيرها على المنطقة العربية»، ضمن كتاب «التغيرات في المنطقة العربية»، مرجع سابق.

164 - شيماء الشرقاوي، مرجع سابق.

لليمين المتطرف يكون فيها الأخير الآمر الناهي في زمام الأمور حول العالم. اكتسب التحليل الأخير زخمًا أكبر مع صعود عدد من الأحزاب اليمينية في دول أوروبية مختلفة مثل بولندا والمجر وإيطاليا لاحقًا أو حتى مشاركة عدد من تلك الأحزاب في الانتخابات كما في هولندا والسويد وفرنسا وتحقيقها نتائج إيجابية.[165]

على المستوى الاقتصادي أدّى تزامن انتهاء الحرب الباردة وصعود النيوليبرالية[166] لإعادة إحياء اليمين الجديد فظهرت موجة جديدة من الحركات اليمينية واليمينية المتطرفة سواءً في غرب أوروبا أو في شرق أوروبا في فترة ما بعد الاشتراكية[167]، الأمر الذي مهَّد لإيجاد حالة من القبول بخطابات اليمين وأفكاره في المنطقة العربية.[168]

---

165 - -Matt McAlester. "Brexit, Trump, Le Pen and the Rise of the Right: The Anger Goes Global." The Independent, November 2016: https://goo.gl/TRGwNe.

166 - The best critique of Neo-Liberalism from a leftist perspective is arguably David Harvey, A Brief History of Neoliberalism, Oxford University Press: Oxford, 2007

167 - On the rise of the far-right in Eastern Europe, see Michael Minkenberg, "The Rise of the Radical Right in Eastern Europe: Between Mainstreaming and Radicalization", Georgetown Journal of International Affairs (Volume 18, No. 1), 2017, https://www.georgetownjournalofinternationalaffairs.org/online-edition/2017/12/22/the-rise-of-the-radical-right-in-eastern-europe-between-mainstreaming-and-radicalization

لمزيد من المعلومات راجع كتاب «التغيرات في المنطقة العربية»، مرجع سابق.

168 - جورج فهمي، مرجع سابق.

على الرغم من أن صعود حركات اليمين الجديد في أوروبا ودعمها الأنظمة القمعية في المنطقة العربية ليس جديدًا ولا يحدث للمرة الأولى، فإنه بعد الحراك العربي أصبحت الصورة مختلفة إلى حد كبير إذ تظهر مقاومة السياسات الناتجة عن هذه التطورات في أوروبا على المستوى الشعبي أو في منطقتنا، إلا أن هذه المقاومة بسبب الدعم الدولي لها أصبحت تتخذ أحيانًا أشكالًا عنيفة وفقًا للسياق والتطورات.[169] كما أن تداعيات موجة صعود اليمين المتطرف ونجاح خطابه في دول عالم ثالثي مثل البرازيل ومنطقة أميركا الجنوبية، قد لا يكون ذا تأثير مباشر على قضايا منطقتنا العربية فيما يخص أبرز المعضلات التي تواجهها، لكنه سيمنح بلا شك نفسًا قويًّا للأنظمة السلطوية في مختلف البلدان العربية، كما سيزكّي من تلك الأطاريح المنتشرة في أغلب المجتمعات العربية والتي نجدها لدى بعض التيارات الفكرية والحركات السياسية الداعمة للفكر المحافظ والأصولي والمتبنية للمقولات الشبيهة والمتقاربة أحيانًا لسرديات ومركب خطاب اليمين المتطرف، فيما يتعلق بحقوق المرأة وحقوق المختلفين من الأقليات الدينية والعرقية.[170]

169 - جينارو جيرفازيو، ظهور اليمين الجديد في أوروبا وأثره على العالم العربي، ضمن سلسلة «التغيرات الدولية وتأثيرها على المنطقة العربية»، ضمن كتاب «التغيرات في المنطقة العربية»، مرجع سابق.

170 - توفيق عبد الصادق، اليمين المتطرف في البرازيل: دراسة في الخلفيات

أدى صعود كل من اليمين الديني والسلطوي إلى تحجيم دور المجتمع المدني والحركات الاحتجاجية من حيث تأميم المجال السياسي من خلال قوانين الإرهاب ومنع التظاهر والإضراب.171 استهدفت الحملات الأمنية لهذه الفترة النشطاء من المجتمع المدني بشكل واضح، فتعدَّدت البلاغات المقدمة من محامين ونشطاء ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين ضد العاملين في منظمات المجتمع المدني.[172] كما تحاول قوى اليمين العربي إبراز نفسها باعتبارها محاور اعتدال بتقديم مزيد من التنازلات عن القضايا الرئيسية.[173]

صاحب هذه الحالة كذلك تغيّرٌ في توازن القوى في المنطقة حيث أصبح أكثر ميلًا إلى ما يمكن أن نسميه «معسكر الخليج» تحت قيادة المملكة العربية السعودية والإمارات،[174] تتراجع فيه أدوار الدول ذات القيادة تاريخيًّا، فمصر على سبيل المثال تحولت من قيادة المشروع التقدمي التحديثي رافع راية القومية، لكي

ومركب الخطاب، ضمن سلسلة دراسة حالة عن «التغيرات الدولية وتأثيرها على المنطقة العربية»، https://bit.ly/2KVYbD6

171 - شيماء الشرقاوي، مرجع سابق.

172 - استنساخ القمع: حالة حرية التعبير في العالم العربي في عام 2013، الشبكة العربية لحقوق الإنسان، مايو 2014، http://is.gd/mhMRgp

173 - عمر سمير خلف، اليمين في السعودية وقضايا المنطقة العربية، ضمن سلسلة دراسة حالة عن «التغيرات الدولية وتأثيرها على المنطقة العربية»، https://bit.ly/2kIhOUN

174 - المنطقة العربية بين التغيرات الداخلية والسياق العالمي، مرجع سابق.

تكـون مجـرد مشـارك في محـور بقيـادة الخليـج.[175] فمنـذ رحيـل عبـد النـاصر ومـع العوائـد الهائلـة للنفـط في السـبعينيات ومـع الهجـرة إلى الخليـج، بـدأت مرحلـة جديـدة تقـوم عـلى كـسر المـشروع العـربي لمصلحـة المـشروع الدينـي. وقـد سـاعدت عزلـة مـصر بعـد «كامـب ديفيـد» ثـم ضعفهـا في عهـد مبـارك إلى الوصـول إلى ألفيـة ثالثة تسـيطر فيهـا الوهابيـة عـلى الفكـر العـربي.[176] لذلـك عندمـا انطلقـت أحـداث «الربيـع العـربي» ومـا مثَّلـه ذلـك مـن تهديـد بالأسـاس لعـروش الخليج، كان عـلى الدولـة السـعودية إحـكام سـيطرتها بالعمـل عـلى تحويـل هـذا «الربيـع» إلى صراع مذهبـي يؤسِّـس لنظـام إقليمـي سـني بديـلًا مـن النظـام الإقليمـي العـربي. لم يكـن لهـذا المـشروع أن يحقـق تقدمـه إلا نتيجـة ثغـرات وعيـوب في النظـام الإقليمـي العربي، أبرزهـا ملـف الأقليـات وفاعليـة المنظمـة الإقليميـة واسـتخدامه كمصـدر للشرعيـة بديـلًا مـن الإنجـاز عـلى أرض الواقـع، وانفصالـه عـن الديموقراطيـة ومفهـوم المواطنـة الكاملـة والعدالـة الاجتماعيـة في معظـم تجاربـه.[177]

باتـت الطائفيـة إسـتراتيجية ثوريـة مضـادة وقائيـة يطبقهـا النظـام السـعودي لتضخيـم الاختـلاف الدينـي والكراهيـة والحيلولـة دون تطـور السياسـة الوطنيـة غـير الطائفيـة، وذلـك كـردٍّ فعـل عـلى

175 - المرجع السابق.

176 - محمد العجاتي نظام إقليمي جديد أم كارثة عالمية قيد التشكل؟ السفير العربي، 14/10/2016، https://bit.ly/2lB9E0x

177 - المرجع السابق.

الربيع العربي... ويُسهم الاضطهاد الذي يمارسه النظام السعودي على الأقلية الشيعية بدوره في تعزيز الهوية الطائفية لتلك الأقلية: تفعيل صيرورة التطييف... منذ السبعينيات، حلَّت نزعة إسلاموية سنية وشيعية كبيرة محلَّ التسيُّس المحدود السابق الذي كان يشجع أيديولوجيات يسارية ووطنية علمانية في العربية السعودية. وقد كان هذا متوافقًا مع حال بلدان عربية أخرى حيث انحسرت الحركات الوطنية واليسارّة العلمانية مع بداية صعود الإسلام السياسي.[178]

التغيرات السياسية في كل من ليبيا وسوريا وتحوّل الثورات الشعبية في تلك الدول إلى حروب أهلية ضارية، والتي ترافقت مع التغيير من سياسات الإدارة الأمريكية السابقة تحت قيادة أوباما لقيادة جديدة شعبوية، أعطت المشروع الثاني مزيدًا من الزخم والقوة لكي يقود المنطقة.[179]

ونتوقف هنا كدراسة حالة عند إحدى القضايا المحورية في المنطقة لنرى التطورات الخاصة بها وهي القضية الفلسطينية والتي كانت القضية المحورية للنظام الإقليمي القديم. كانت حقبة ما بعد الثورات مباشرة تشهد ظهور أحلاف جديدة تشكلت بفعل

178 - مضاوي الرشيد، الطائفية كثورة مضادة، السعودية و»الربيع العربي»، مجلة «بدايات»، 2017، https://www.bidayatmag.com/node/845

179 - محمد العجاتي، نظام إقليمي جديد، مرجع سابق.

قـوى غـير عربيـة مثـل تركيـا وإيـران وإسرائيـل. يـرى كـثرٌ أن تلـك الأحـلاف الجديـدة لعبـت دورًا مهـمًّا في مواجهـة آثـار مـا بعـد الثـورات وضيّقـت الخنـاق بالطبـع عـلى أي انتفاضـات مسـتقبلية في المنطقـة مـن شـأنها هـدم الأنظمـة القائمـة والتـي تضمـن اسـتمرار الوضـع الحـالي للنظـام الإقليمـي في المنطقـة. ارتبطـت تلـك الأحـلاف الجديـدة بالرؤيـة الخليجيـة التـي تسـتبدل إيـران بـدلًا مـن إسرائيـل كعـدوٍّ أول، وتقسّـم المنطقـة طبقًـا لخطـوط وتقسـيمات طائفيـة، وبالتالي اسـتبدال بالخطـاب القومـي العـربي المحـور السُّـني في النهايـة.[180]

فيـما يتعلـق باليمـين السـلطوي، عـام 2016 تحـدّث السـيسي في مقـر الأمـم المتحـدة عـن «معانـاة الفلسـطينيين»، وعـن «إنهـاء الاحتـلال»، وعـن اسـتعادة الشـعب الفلسـطيني «حقوقـه». أمـا في 2017 فوجدنـا أن هـذه المصطلحـات غابـت لتحـل محلهـا مطالبـات للفلسـطينيين «بقبـول التعايـش مـع الآخـر، الإسرائيليـين». ويحمـل هـذا الخطـاب بـين طياتـه تحـولات جذريـة للموقـف المـصري الرسـمي مـن الـصراع العـربي الإسرائيـلي.[181] أمـا في تونـس فتـم التحايـل عـلى قانـون كانـت تقدَّمـت بـه كتلـة في البرلمـان التونـسي ذات مرجعيـة قوميـة ناصريـة، يجـرِّم التطبيـع.[182] أمـا دوليًّـا فنمـوذجٌ لموقـف اليمـين

180 - المنطقة العربية بين التغيرات الداخلية والسياق العالمي، مرجع سابق.

181 - شيماء الشرقاوي، مرجع سابق.

182 - بـلال عبـود، هـل تفـرض تونـس قانـون تجريـم التطبيـع ام سـتتكرر زيـارات الإسـرائيليين لهـا، قنـاة الميادين، 13/ 6/ 2019،

الأوروبي يتمثّل في سالفيني الذي اتخذ حرب إسرائيل المزعومة ضد التطرف الإسلامي ذريعة لدعم الدولة اليهودية تحت بند السيادة على حساب حقوق الفلسطينيين. تم توضيح هذا الموقف من الصراع العربي الإسرائيلي في مساءلة برلمانية انعقدت لهذا الغرض إذ رفضت رابطة الشمال أي محاولة من طرف واحد للاعتراف بفلسطين كدولة مستقلة.[183]

أما الولايات المتحدة مع ترامب، فقد بدأت منذ استلام الأخير للرئاسة اتّخاذ خطواتٍ ممهدة لنسف القضية الفلسطينية بدأت بالاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل كخطوة تحمل «رمزيّة سلب عاصمة فلسطين التاريخية»[184]، أتى بعدها قرار وقف تمويل «وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين» (الأونروا) «ليمهّد لمرحلة عملية جديدة عنوانها العريض، تصفية قضية فلسطين، من بوابة حقّ العودة، وتحويلها إلى أزمة لاجئين تخنق دول الجوار وتحاصر مقاومي الاحتلال»،[185] و«تصفية قضية اللاجئين الفلسطينيين، بدءًا بعدم الاعتراف بوجود قضية كهذه».[186] وكاد

---

https://bit.ly/2J2Pjte

183 - https://www.leganord.org/notizie/le-news-2/13791-palestina-mozione-lega-no-stato-sovrano-senza-intesa-con-israele

184 - ترامب يشطب حقّ العودة: قرار أميركي بوقف تمويل «الأونروا»، الأخبار، 1/9/2018، https://al-akhbar.com/Palestine/257138

185 - المرجع السابق.

186 - المركز العربي للأبحاث، أسباب وقف إدارة ترامب تمويل «الأونروا» وخلفيّاته، 9/9/2018، https://bit.ly/2ll5ni0

«القـرار الأمـيركي بتخفيـض مسـتوى التبرعـات بقيمـة 300 مليـون دولار بالإضافـة إلى عجـزٍ مركـب (تعانيـه الوكالـة) منـذ عـام 2017»[187] أن يـودي بحيـاة الوكالـة لـولا «أنهـا اعتمـدت سياسـة تمويليـة هجوميّـة الطابـع مـن خـلال إطـلاق حملـة «الكرامـة لا تقـدّر بثمـن» (هدفهـا) تعويـض الفاقـد الأمـيركي وخلـق آليـة عـدم الاعتـماد عـلى متـبرّع كبـير واحـد».[188] وعـلى الرغـم مـن المحـاولات الحثيثـة لاسـتمرار عملهـا، فـإن «الأونـروا» «تنتظـر أزمـة وجـود تُضـاف إلى أزمـة التمويـل، في ظـلّ السـعي الأمـيركي- الإسرائيـلي إلى منـع التجديـد لهـا داخـل الجمعيـة العامـة للأمـم المتحـدة»،[189] الأمـر الـذي يعنـي «نـزع الغطـاء السـياسي عــن الوكالــة، أو بالحــد الأدنى دفعهــا إلى تغيــير تصنيفهــا للاجئــين الفلسـطينيين ليصبـح عددهـم بضعـة آلاف وليـس خمسـة ملايـين كـما هــو مسـجّل حاليًّـا لديهـا».[190]

وفي ظـل هـذه الوضعيـة الدوليـة والإقليميـة كـما كشـفت صحيفـة «نيويـورك تايمـز» أن مقترحـات ولي عهـد أبـو ظبـي الشـيخ محمـد بـن زايـد، هــي جوهــر خطـة جاريـد كوشــنر مستشــار الرئيــس ترامــب

187 - هـل تواجـه الأونـروا أزمـة وجوديـة أخـرى عـام 2019، ولمـاذا يتطلّـع المتحـدّث باسـمها إلـى إنهـاء عملهـا؟ أخبـار الأمـم المتحـدة، 26/4/2019، https://news.un.org/ar/story/2019/04/1031821

188 - المرجع السابق.

189 - هانـي إبراهيـم، بعـد أزمـة التّمويـل.. «الأونـروا» أمـام أزمـة التجديـد، الأخبـار، 13/5/2019، https://bit.ly/2lmhqM2

190 - المرجع السابق.

وصهره، لتسوية الصراع الفلسطيني الإسرائيلي191 تحت مسمى صفقة القرن. فمنذ تولّي ترامب سدة الرئاسة عام 2017، «تعهّدت إدارته بعرض رؤيتها للسلام في الشرق الأوسط خلال أشهر قليلة، إلا أنه وبعد مرور عامين ونصف العام، لم تخرج الصفقة إلى العلن، ولم تعرف تفاصيلها في صورة خطة مكتوبة».[192] وعلى الرغم من عدم الإعلان عن الصفقة بشكل مكتوب حتى الآن وخروج العديد من التصريحات والمعلومات التي تربط ذلك بالانتخابات الإسرائيلية ثم الانتخابات الرئاسية الأميركية، فإن «إدارة ترامب فضَّلت أن تفرض الصفقة على الأرض، وهو ما تقوم به باتخاذها قرارات شديدة الأهمية تفرض واقعًا جديدًا على الأرض»،[193] على أن تُعلن ذلك بشكلٍ مكتوب وتلقى رفضًا عربيًّا. وقد أتت خطوات ترامب حول إعلان القدس عاصمة موحّدة لإسرائيل وسحب التمويل للـ»أونروا» ومحاولة تخفيض مدة تفويضها بمباركة العديد من الدول العربية التي، وإن لم تعلن صراحةً دعمها الشّق السياسي للصفقة خصوصًا

191 - Davis Kirkpatrick, “The Most Powerful Arab Ruler Isn’t M.B.S. It’s M.B.Z.”, New York time, June 2, 2018.
https://www.nytimes.com/2019/06/02/world/middleeast/crown-prince-mohammed-bin-zayed.html

192 - محمد المنشاوي، صفقة القرن لا تُعلن بل تُطبّق، الشروق، 20/6/2019،
https://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?cdate=20062019&id=87b12efa-745f-4072-aff7-7551f1cf6131

193 - المرجع السابق.

بعد رفض السلطة الفلسطينية لها حتى قبل الطرح والمكانة التي ما زالت تحظى بها القضية في وجدان الشارع العربي، غير أن تلك الأنظمة لم تعد ترى في إسرائيل عدوًّا مطلقًا وبالتالي لم يعد إنهاء الاحتلال الإسرائيلي ضمن اهتماماتها. وضمن هذا السياق أتى مؤتمر البحرين الذي طرح الشق الاقتصادي من الصفقة والذي وصفه البيت الأبيض بأنه محاولة «لجمع 50 مليار دولار في صورة استثمارات».[194] وعلى الرغم من مقاطعة الفلسطينيين المؤتمر، وهم المعنيون بالقضية، فإن دولًا عربيّة شاركت به على قاعدة أن «كل ما يحسّن ظروف معيشة الفلسطينيين ينبغي الترحيب به»،[195] كما أتى على لسان وزير الدولة للشؤون الخارجية السعودي عادل الجبير الذي شاركت دولته في المؤتمر إلى جانب كلٍّ من الإمارات ومصر والأردن والمغرب، غير مكترثة للغضب الشعبي الذي اجتاح الشارع العربي رفضًا للمؤتمر وللحلول الاقتصاديّة المزعومة.

وقد أدى ما سبق إلى تدهور مصداقية العمل العربي المشترك كثيرًا في السنوات الأخيرة، وأصبحت جامعة الدول العربية عاجزة عن أداء مهامها،[196] وسقوط قواعد التعامل المعروفة بين الدول

194 - ورشة البحرين: لماذا يرفض الفلسطينيون المال مقابل الحل السياسي؟ فرانس 24، 25/6/2019، https://bit.ly/2mLNZ6k

195 - بوعلام غبشي، من هي الدول العربية التي تحضر مؤتمر البحرين حول «صفقة القرن»؟ فرانس 24، 25/6/2019، https://bit.ly/2NgaSvH

196 - إصلاح وتطوير «النظام الإقليمي العربي»، معهد الأصفري للمجتمع المدني والمواطنة»، ص14.

العربية ومن أمثلة ذلك شرعنه التدخّل الصريح في شؤون النظام العربي، عسكريًّا وسياسيًّا.[197] يتضح مما سبق أننا أمام مرحلة مختلفة على مستوى الأيديولوجيا السياسية والاقتصادية للدول المشكّلة للنظام، تغيير واضح في بنيته وموازين القوى الحاكمة له، واختلاف ظاهر في أولوية القضايا التي يتعامل معها هذا النظام.

ثانيًا: ملامح النظام الإقليمي الجديد

في ضوء التطورات السابقة نستطيع أن نتبين بعض السمات الأساسية للنظام الجديد والتي يمكن تحديدها في مجموعة من الملامح الأساسية:

1) تعاظم دور دول الجوار الإقليمية:

في الصراع القديم حول قيادة المنطقة بين المعسكر التحديثي والمعسكر الرجعي، تحديدًا بين مصر والسعودية.. كان كلٌّ منهما يمثّل مصالح قوتين عظميين في تلك الفترة، هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي.[198] كانت حقبة ما بعد الحراكات مباشرةً تشهد ظهور أحلاف جديدة تشكلت بفعل قوى غير عربية مثل تركيا وإيران وإسرائيل. يرى كثرٌ أن تلك الأحلاف الجديدة لعبت دورًا مهمًّا في مواجهة آثار ما بعد الثورات وضيّقت الخناق بالطبع على أي انتفاضات مستقبلية في المنطقة من شأنها هدم الأنظمة القائمة

197 - المرجع السابق.
198 - المنطقة العربية بين التغيرات الداخلية والسياق العالمي، مرجع سابق.

والتي تضمن استمرار الوضع الحالي للنظام الإقليمي في المنطقة.[199] كشفت تحالفات قمة الرياض في أيار/ مايو 2017 تبلور علاقات تحالف جديدة بين أطراف تجمعهم أجندات يمينية مختلفة، ومن أهم الأسس التي قامت عليها علاقة التحالف الجديد: العداء للربيع العربي.. ودعم صفقة القرن والتطبيع مع إسرائيل، ناتو العرب ودعم الحرب في اليمن.[200]

شهد العقد الأول من القرن الحالي ظاهرة جديدة تمثّلت بعودة تركيا بقوة إلى المجال العربي بعد غياب شارف على قرن من الزمن عن المنطقة، ف»مع بروز معالم نظام عالمي جديد، كان لا بدّ لتركيا، كما كل الدول، أن تختار موقعها وتتبنّى إستراتيجية جديدة تتلاءم مع المتغيرات الإستراتيجية والجيوسياسية الجديدة».[201] تعمل السياسات التركية الراهنة على مستوياتٍ عدّة «فعلى المستوى السياسي، قامت أنقرة بتحسين علاقاتها الثنائية مع الدول العربية، وهي سياسة روّج لها الشعار الذائع الصيت: صفر مشاكل مع الجيران. أما على المستوى الاقتصادي، فقامت تركيا بتوقيع اتفاقات تجارة حرة مع الدول العربية، وسعت إلى تأسيس مناطق تجارة

199 - المرجع السابق.

200 - محمد المنشاوي، اليمين الأمريكي والمنطقة العربية، ضمن سلسلة «التغيرات الدولية وتأثيرها على المنطقة العربية»، https://bit.ly/2klsWqq

201 - النقيب باسل الحجار، التحوّلات الإستراتيجية التركية، مجلة الدفاع الوطني، العدد 104، نيسان/ إبريل 2018، موقع الجيش اللبناني، https://bit.ly/35rXVUk

حـرة لتدفّـق البضائـع والأفـراد في الـشرق الأوسـط.. وعـلى المسـتوى الاجتماعـي- الثقـافي، سـعت تركيـا إلى إغـواء قلـوب الشـعوب العربيـة وعقولهـم عـبر اسـتعراض القـوة الناعمـة: غـزت المسلسـلات التركيـة الشاشـات في العـالم العـربي إلـخ».[202] وقـد كان لتركيـا دور كبـير عـلى المسـتوى العسـكري في سـوريا «فمنـذ أن بـدأت الحـرب في سـوريا بـين الجيـش النظامـي والجماعـات المسـلّحة وتركيـا تلعـب دورًا تحـرص أن يكـون رئيسـيًّا في اللعبـة العسـكرية والسياسـية»،[203] خصوصًـا في ظـل صراعهـا مـع «حـزب العـمال الكردسـتاني» ونشـاط الأكـراد في سـوريا. وفي مـا خـصّ إسرائيـل، «سـعت تركيـا إلى إبـراز نفسـها عـن المواقـف المهادنـة للقـادة العـرب، عـبر رفـع الصـوت ضـد الدولـة اليهوديـة والدفـاع عـن فلسـطين.. لقـد كانـت القضيـة الفلسـطينية بمثابـة حصان طـروادة الـذي سـمح لأنقـرة بالتغلغـل في العـالم العـربي، واكتسـاب نفـوذ في الجامعـة العربيـة».[204]

مـن جهـة ثانيـة، أصبحـت إيـران بدورهـا أحـد أبـرز الفاعلـين الإقليميـين في المنطقـة العربيـة خصوصًـا بعـد التحـركات العربيـة مطلع العـام 2011، وتحديـدًا في سـوريا والعـراق واليمـن، «ففـي الوقـت الحـاضر، سـعت إيـران إلى إعـادة بنـاء دورهـا الإقليمـي مسـتغلّةً بذلـك

202 - المرجع السابق، ص 34.

203 - عبـد الله السـويجي، الـدور التركـي فـي سـوريا، صحيفـة الخليـج، 19/2/2018، http://www.alkhaleej.ae/studiesandopinions/page/7fa5830b-bec3-4e2f-ab29-e8869ed9f259

204 - جنى جبور، تركيا وجامعة الدول العربية، مرجع سابق، ص39، 40.

جملة من المتغيّرات التي شهدتها المنطقة (ثورات الربيع العربي، تصاعد التيار الإسلامي الأصولي (داعش، النصرة)، الإدارة الأميركية الجديدة بقيادة ترامب، التحالف السني بقيادة السعودية إلخ).[205] لقد بذلت إيران «جهدًا مكلفًا ومتكاملًا لإبقاء الرئيس بشار الأسد في السلطة قدر الإمكان»،[206] فساندته سياسيًّا وإعلاميًّا وماديًّا وعسكريًّا حيث «تقدّم أجهزة الأمن والمخابرات الإيرانية المشورة والمساعدة للجيش السوري.. وقد تطورت هذه الجهود إلى مهمة تدريب استكشافية للحرس الثوري الإيراني وقوة القدس وأجهزة المخابرات وقوات إنفاذ القانون.. إن نشر القوات البرية للحرس الثوري الإيراني في الخارج هو توسّع ملحوظ في استعداد إيران وقدرتها على إبراز القوة العسكرية خارج حدودها»،[207] إضافة إلى علاقة إيران بـ«حزب الله» الذي يقاتل في سوريا إلى جانب الجيش السوري. أما في اليمن، «فلم تلعب إيران دورًا ملحوظًا في الشؤون اليمنية. لقد حافظت طويلًا على حضور ديبلوماسي في صنعاء، لكن تأثيرها خلال عقدَي ما قبل الحرب كان هامشيًّا.. وفي عامي 2011 و2012 بدأ دور إيران بالتغير خلال صعود الربيع العربي

205 - فراس إلياس، مستقبل مكانة إيران الإقليمية في الشرق الأوسط، https://dergipark.org.tr/en/download/article-file/391183

206 - Will Fulton, Joseph Holliday, Sam Wyer, Iranian Strategy in Syria, Institute For The Study Of War, http://www.understandingwar.org/report/iranian-strategy-syria

207 - المرجع السابق.

والاضطرابات السياسية اللاحقة. تزايد دعم طهران للحوثيين خلال تلك الفترة، على الرغم من أن إيران لم تكن لاعبًا في المفاوضات التي أفضت إلى استقالة صالح.. وقد نما دعم إيران للحوثيين بشكلٍ شفّاف بعد الحملة العسكرية النّاجحة التي قام بها الموالون للحوثيين وصالح في صيف عام 2014».[208] أما «السياسات الحالية لإيران تجاه العراق فلا تزال متأثرة بالحرب»[209] الإيرانية - العراقية (1980 - 1988). وخلال السنوات القليلة الماضية، تدخّلت إيران في العراق لدعم الجيش العراقي و»الحشد الشعبي» الذي تأسس بفتوى من السيستاني، وقد وصف رئيس الوزراء العراقي السابق نوري المالكي الدور الإيراني في العراق بـ»الأساسي في دعم الجيش العراقي ومساعدة العراق على مواجهة القاعدة وداعش، مشيرًا إلى أن إيران بدأت تدعم العراق إلى درجة سحب السلاح من بعض قطعاتها العسكرية ومن مخازنها، مؤكّدًا على أنه لولا السلاح الإيراني والخبرة التي استفادوا منها في تجربة التعبئة الشعبية لكان وضع العراق صعبًا جدًّا».[210]

208 - Gerald M. Feierstein, Iran's Role in Yemen and Prospects for Peace, Middle East Institute, 6/ 12/ 2018, https://www.mei.edu/publications/irans-role-yemen-and-prospects-peace

209 - علي رضا نادر، الدور الذي تضطلع به إيران في العراق، هل من مجالٍ للتعاون بين الولايات المتّحدة الأميركية وإيران؟ Rand Corporation، https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/perspectives/PE100/PE151/RAND_PE151z1.arabic.pdf

210 - من أوقف انهيار العراق؟ المالكي يجيب، قناة العالم، الثلاثاء 25/11/2014،

2) مراجعة «سايكس- بيكو» من جانب القوى العظمى

بالطبع لم تكن القوى الدولية غائبة عن المنطقة في ظل هذا الوضع، فقد كان هناك دور قوي لممارسات الولايات المتحدة وروسيا في تعزيز هذه التحالفات في المنطقة والتأثير على ماجريات الأحداث وذلك من خلال التدخل الروسي المباشر في سوريا ومن خلال تحالف الولايات المتحدة مع دول عربية كالسعودية والإمارات ودعمها للتدخل العسكري في اليمن.[211] لم تعد روسيا إلى المنطقة بخطابها الأيديولوجي المبني على أرضية قديمة، ولكن عبر الرغبة في التعاون الاقتصادي والعسكري من جهة[212] واستخدمت أدواتها الجديدة (قناة آر تي، مثالًا) لتقديم نفسها كبديل قوي للغرب وخصوصًا أمريكا.[213]

كانت بنية النظام العربي على خلفية الحرب العالمية الأولى قائمة على توزيع مغانم الحرب بين قوتين منتصرتين تحكّمتا في مصير الولايات العربية من السلطنة العثمانية وبَنَت سيطرتها عليها بواسطة نمط جديد من النفوذ والسيطرة الاستعماريين.

---

https://bit.ly/2M7UzOX

211 - بيري كاماك وميشيل دنّ، إشعال الصراعات في الشرق الأوسط أو إخماد النيران، مركز كارنيجي الشرق الأوسط، 21/1/2019، http://bit.ly/2MF5KPx

212 - هاشم ن. ج. & طعمه أ. ز. أ. (2015). الموقف الروسي من الثورات العربية. Siyasat Arabiya, 12, 112–127.

213 - عبد الهادي العجلة، عودة الروس: الشعبوية الروسية وتأثيرها على منطقة الشرق الأوسط، ورقة بحثية ضمن «التغيرات في المنطقة العربية وأثر التطورات الدولية: بين تيارات شعبوية والأصوات البديلة»، https://bit.ly/2ohTdYV

النظـام النيوكولونيـالي: وهـي سـلطات محليـة تحكـم تحـت سـيطرة وإشراف القوتـين الغربيتـين (الاسـتعماريتين)، وتحكيـم الأقليـات الدينية والمذهبيـة بالدويـلات الناشـئة، تحـت شـعار «حمايـة الأقليـات».214 ومـا بعـد الحـراك أصبـح هنـاك ميـل عالمـي إلى تعديـل هـذه البنيـة اسـتجابة لتطـورات مصالـح القـوى الدوليـة، والغريـب في هـذا الإطـار أن القـوى التـي كانـت تقليديًّـا تناهـض هـذه البنيـة باعتبارهـا أسـاس تقسـيم المنطقـة أصبحـت مـن أكـثر المدافعـين عنهـا تحديـدًا التيـار القومـي وقطاعًـا عريضًـا مـن اليسـار بحجـة أن القـادم هـو تقسـيم للمقسّـم ومزيـد مـن شرذمـة للقـوة العربيـة. وقـد رأينـا تيـارات وقـوى كانـت تاريخيًّـا تـرى في سـايكس بيكـو وترتيباتـه الوضـع الأمثـل لهـا، تنتفـض عليـه وتدعـو إلى نظـام بديـل أكـثر التحاقًـا بالعولمـة والتغـيرات الدوليـة، وتميـل معظـم التيـارات اليمينيـة إلى ذلـك، بمـا فيهـا التيـار الدينـي الـذي عـاد مـن جديـد إلى أحـلام الخلافـة الإسـلامية.

3) ضعـف الـدول العربيـة عـلى مسـتوى الهيـكل وتمسّـك الأنظمة بهـذا الهيكل

لم تعـرف المنطقـة العربيـة دومًـا الفـرق بـين الدولـة (الهيـاكل القانونيـة والإداريـة والبيروقراطيـة والقهريـة الدائمـة، التـي تهـدف إلى

214 - فـواز طرابلسـي، مئـة عـام علـى اتفاقيـة سـايكس بيكـو وإعـلان بلفـور، ورقـة بحثيـة ضمـن سلسـلة دراسـة حالـة عـن «التغيـرات الدوليـة وتأثيرهـا علـى المنطقـة العربيـة»، ضمـن كتـاب «التغيـرات فـي المنطقـة العربيـة»، مرجـع سـابق.

تنظيم العلاقة بين المجتمع المدني والسلطة الحاكمة وإلى تنظيم العلاقة بين أطراف المجتمع المدني بعضهم مع بعض) والنظام (قواعد إدارة العلاقة داخل مركز السلطة السياسية وقواعد العلاقة بين من يملكون السلطة ومن لا يملكونها) بسبب الظروف التي أحاطت بمشروع بناء الدولة القومية في تلك الدول والتي جاءت من أعلى إلى أسفل من خلال النخب الحاكمة أو من خلال الاستعمار.[215] فقد ارتكزت بنية الدولة القومية العربية على غياب الديموقراطية، وقد عنى غيابها «في الفكر القومي العربي لدى رعيله الأول فقدانها (أي الديموقراطية) أحد الرواكز التي ترتكز عليها، وهو مبدأ المواطنة».[216] ويعني غياب الديمقراطية التخلّي عن عمودها الفقري وهو انبثاق الحكم من الشعب بصفته مصدرًا للسلطات، وبالتّالي نحن أمام دول قوامها أنظمة حكم منقطعة في بنيتها واستمراريتها عن الشعب. وضمن هذا السياق، أدى غياب الديموقراطية، وبالتالي انتفاء مبدأ المواطنة، إلى تكوين مجتمعات عربية ذات نسيج اجتماعي «كان في جميع هذه الدول- ولا يزال نسبيًّا- نسيجًا تقليديًّا يتميز بالفئوية العشائرية أو القبلية أو الدينية أو المحلية أو اللغوية أو العرقية، وقد انعكس

215 - جورج فهمي، مرجع سابق. لمزيد من المعلومات، راجع محمد العجاتي: المواطنة والحراك العربي، https://bit.ly/2pgLGJK

216 - محمد العجاتي، شيماء، الشرقاوي، المواطنة والحراك العربي... قراءة في الدساتير والواقع والبنية ما بعد الانتفاضات العربية، ورقة تم تقديمها إلى مؤتمر «أثر الانتفاضات العربية على المواطنة في العالم العربي»، https://bit.ly/2k9kUAY

ذلـك ضعفًـا في الشـعور بالانتـماء الوطنـي والـولاء الوطنـي وهشاشـة المؤسسـات الوطنيـة المشـتركة وتمييـزًا بـين أبنـاء البلـد الواحـد في التشريعـات والممارسـات عـلى السـواء».[217] وهـو مـا قادنـا إلى الفكـرة التـي يطرحهـا نزيـه أيـوبي في كتابـه عـن الدولـة العربيـة مـا بـين الدولة القويـة والشرسـة «فبينـما تبـدو الدولـة العربيـة بمـا تملكـه أنظمتهـا السياسـية مـن أجهـزة أمنيـة واسـتخباراتية وكأنهـا دولـة قويـة، فإنهـا في الحقيقـة أقـرب إلى مـا يسـميه أيـوبي الدولـة الشرسـة أو الدولـة البوليسـية منهـا إلى الدولـة القويـة، بـل إن أيـوبي يـرى أن تلـك الدولـة الشرسـة في داخلهـا دولـة في غايـة الضعـف، حيـث إنهـا لا تسـتطيع أن تفـرض سـيطرتها عـلى المجتمـع مـن خـلال القـوة الناعمـة، بـل تضطـر إلى اسـتخدام أدوات القـوة الخشـنة لإنفـاذ قراراتهـا حيـث إنهـا تفتقـد إلى أي رصيـد معنـوي لـدى مواطنيهـا».[218]

عشـية الحـراك، جعلـت هـذه العوامـل البنيويـة مـن الـدول العربيـة دولًا تعـاني مشـاكل هيكليـة في ظـل التطـورات الاقتصاديـة والاجتماعيـة والتكنولوجيـة[219]، ودولاً غـير قـادرة عـلى توليـد آليـات للتعامـل مـع مقتضيـات هـذا العـصر التنظيميـة.[220]

217 - المرجع السّابق.
218 - جورج فهمي، مرجع سابق.
219 - للمزيد حول فكرة الطائفية، مضاوي الرشيد، الطائفيّة كثورةٍ مضادّة السعوديّة و»الربيع العربيّ»، فصلية بدايات، العدد 17-2017، http://bit.ly/2Xbv1aE
220 - أحمد عبد ربه، عن سياسة الخليج تجاه مصر، بوابة جريدة الشروق المصرية، 13 فبراير 2016، http://bit.ly/2X1ZQd9

4) حـراك عـربي واسـع بمعـادلات جديـدة، جيـل جديـد وأدوات متطـورة

أظهــر الحــراك العــربي مــدى اندفــاع وتطلّــع الشــباب نحــو التغيــير الــذي تصــدّر مشــهد التظاهــرات التــي اجتاحــت الميادين والســاحات في عــدد مــن الــدول العربيــة مــا أظهــر أن «الأجيــال الشــابة في الوطــن العــربي مســتعدة للتضحيــة والفــداء لتقديــم أمثلــة عــلى ضرورة التغيــير والتواصــل مــع المتغــيرات المحيطــة أو البعيــدة عنهــا».[221] ولم يكتــفِ الشّــباب بلعــب دورٍ أســاسي في الحــراك، بــل تــولّى دورًا قياديًّــا موجّهًــا، فالدعــوة إلى ثــورة 25 ينايــر عــلى ســبيل المثــال «قادهــا جيــل الشــباب بالأســاس»،[222] وليــس هــذا مســتغربًا في بــلادٍ يشــكّل الشــباب فيهــا غالبيــة الســكان و«يبلــغ متوســط عمــر (ســكانها الـ370 مليونًــا) أربعــة وعشريــن عامًــا».[223] ويتميّــز الجيــل العــربي الجديــد بســماتٍ متباينــة عــن تلــك التــي حملهــا الجيــل الســابق، فبينــما «كانــت الأجيــال العربيــة الســابقة قــد واجهــت حرمانًــا اقتصاديًّــا أســوأ بكثــير.. واقتنعــت إلى حــدٍّ مــا بالوظائــف المتوســطة الدّخــل، عقــد الجيــل الجديــد الأمــل عــلى مســتقبل أكــثر

221 - كاظـم الموسـوي، عـن الحـراك الشـعبي العربـي الجديـد، جريـدة الأخبـار، 20/5/2019، https://al-akhbar.com/Opinion/270711

222 - الأنمـاط غيـر التقليديـة للمشـاركة السياسـية للشـباب فـي مصـر (قبـل وأثنـاء وبعـد الثـورة)، مجموعـة مؤلّفيـن، منتـدى البدائـل العربـي للدراسـات، ص11.

223 - رضـوان زيـادة، الشـباب وثـورات «الربيـع العربـي»، الحيـاة، 22/8/2017، https://bit.ly/2lD7yxq

إشراقًا، فأظهر قدرةً فائقةً على رفض فكرة الحكومات الفاسدة التي حكمت على مدى عقود طويلة حتى في الجمهوريات العربية التي بدأت تحضر لفكرة توريث السلطة».[224] ويحمل الجيل الجديد وعيًا اجتماعيًّا «يمكّنه في فترةٍ من الفترات من تجاوز الخلافات الاجتماعية والطبقية والأيديولوجية من أجل التوحد بهدف التغيير»،[225] لذلك فإنه برز «بخصائصه ورؤيته المميّزة للمشاركة غير التقليدية وتخطّى العوائق الأيديولوجية وشكّل فيما بينه تحالفات شبابية عابرة للأيديولوجيات».[226] وقد لعب الطلاب دورًا محوريًّا في التحركات العربية، خصوصًا في مصر والجزائر والسودان.

وقبيل انطلاق الحراك العربي، وجد الشباب العربي نفسه أمام واقعين: واقع عامّ معني بتراجع المشاركة السياسية التقليدية على مستوى العالم ككلّ، وآخر خاصّ بالأنظمة العربية التي تشهد «غيابًا للمؤسسات والقنوات الشرعية، أو كما يمكن أن نطلق عليها وسائل وأدوات المشاركة السياسية التقليدية».[227] أمام هذا الواقع، وجد الشباب العربي في المجال الافتراضي مطلع الحراك وسيلةً

224 - المرجع السابق.
225 - المرجع السابق.
226 - الأنماط غير التقليدية، مرجع سابق، ص11.
227 - مريم مخيمر، عوائق وتحديات المشاركة السياسية التقليدية في مصر، ورقة ضمن كتاب «الأنماط غير التقليدية»، مرجع سابق، ص121.

للدعـوة للتظاهـرات ونقـل أخبارهـا وحـثّ الجماهـير عـلى المشـاركة، وقـد اسـتخدم الشـباب المـصري عـلى سـبيل المثـال، مطلـع 25 ينايـر، «المجـال الافـتراضي مـن أجـل المشـاركة السياسـية للتحايـل عـلى النظـام السـياسي للرئيـس السـابق محمـد حسـني مبـارك»،[228] وقـد حـضر هـذا الفضـاء «ليـذكّي الثـورة ويقـدم لهـا إعلامًـا بديـلًا ومسـتقلًا عـن الدعايـة المضـادة التـي قدمهـا الإعـلام الرسـمي.. فجـاءت الأغـاني والنـكات والشـعارات السـاخرة لتعطـي زخـمًا دعائيًّـا للثـورة انتـشر انتشـارًا واسـعًا بـدءًا مـن وسـائل الإعـلام البديـل عـلى الإنترنـت ليغـزو الإعـلام التقليـدي».229 ويمكـن القـول إن ذلـك قـد تشـكّل وعمـل ضمـن إطـار تحـوُّلٍ طـرأ عـلى طـرق التعبـير خـلال العقـود القليلـة الماضيـة مـا فتـح «مجـالًا واسـعًا لترسـيخ الوعـي بهويـة جيليـة متميزة.. وتعريـف جديـد للهويـة الشـابة يتحـدّد بالمخالفـة للسـائد في المجتمـع مـن تقاليـد وتصـورات وتوقعـات هـذه الهويـة، فنحـن إزاء تحـرّك واعٍ ونشـطٍ للابتعـاد عـن مركـز الجـدل السـياسي والفكـري باتجـاه مسـاحة اللعـب الحـر التـي تميّـز هـذا الجيـل».[230]

228 - المرجع السابق.

229 - الأنماط غير التقليدية، مرجع سابق، ص11.

230 - عمرو عبد الرحمن، الإنترنت والثورة المصرية: الديمقراطية ورحلة البحث عن مكان في هذا العالم، ورقة ضمن كتاب «الأنماط غير التقليدية»، مرجع سابق، ص161.

وفي ظل هذا الوضع لم تعد الأحزاب التقليدية قادرة على استيعاب رؤى الشباب وتطلعاتهم،231 فبدأت الحركات الشبابية في الازدياد وراحت تتنوّع وتتعاظم إستراتيجياتها الهادفة إلى تحقيق مطالبها. و»تيار الشباب (فكرًا لا عمرًا فقط) (في الحراك العربي) ليس حزبًا أيديولوجيًّا واضح المعالم، كما أنه ليس كتلة واحدة متجانسة بشكل كامل، لكنه تعبير بدأ عفويًّا عن حالة من الغضب والاحتقان من الواقع القائم في العالم العربي من جهة، وعن الرغبة في التغيير إلى الأفضل والتطلع إلى المشاركة الفاعلة».232 وقد تفاوتت الحركات الشبابية في الدول التي شهدت تحرّكاتٍ على مستوى الأعداد والتنوّع والإستراتيجيات والتكتيكات المتّبعة والتنظيم والتفاعل والتلاقي فيما بينها، ثم وقوعها بين دفّتي النجاح أو الفشل، ففي مصر على سبيل المثال «لم تعد آلية الحشد، التي اعتمدتها معظم الحركات الشبابية (في ثورة 25 يناير) للضغط على المسؤولين، وسيلة فعّالة لتحقيق المطالب السياسية والاجتماعية والاقتصادية»[233] فخرجت مطالبات بضرورة أن تبحث الحركات الشبابية «عن وسائل أخرى فعّالة ولن تستطيع

231 - عزة مصطفى، خطابٌ قديمٌ لم يمت، وجديدٌ في طور التخلّق، دراسة حالة عن «التغيرات الدولية وتأثيرها على المنطقة العربية». https://bit.ly/2lMtvKq

232 - بدر الإبراهيم، تيار الشباب العربي في الزمن الثوري، الجزيرة، https://bit.ly/2lza8EI

233 - رانيا زادة، الحركات الشبابية والتحول الديمقراطي في مصر، أوراق البدائل، منتدى البدائل العربي للدراسات، https://bit.ly/2nNUnur

القيام بذلك دون بناء تنظيمي قوي قادر على صياغة إستراتيجية واضحة للتعامل مع القضايا محل الاهتمام».[234] وعلى الرغم من ذلك، وبصرف النظر عن نجاح تلك الأساليب من عدمه، غير أن تلك الحركات اعتمدت أساليب وإستراتيجيات شبه متقاربة يمكن اعتبارها سمات عامة، فقد «تميز الحراك العربي الشبابي باللامركزية، وطبع الثورات العربية بهذا الطابع، لذلك يمكن ملاحظة غياب زعامات كبيرة تلتف حولها الجماهير وتصدرها كرموز للحراك الثوري.. وكذلك تخففه من الأيديولوجيا وتقديم المشترك الإنساني والحقوقي كهوية لهذا الحراك.. والدور التعبوي الضاغط».[235] هذا بالإضافة إلى تركيز التحركات الشبابية والجزائرية تحديدًا على السلمية. تواصلت هذه الحركات وبشكل تلقائي بسبب موجات الحراك، وبسبب اللغة، عبر الفضاء الرقمي وتمكنت من بناء شبكاتها الخاصة التي تتناقش، وتطرح رؤى وتطوّر أدوات للدعم المشترك بعيدًا عن اللغة القومية القديمة.

5) صعود الهويات الفرعية:

يتّسم النظام الجديد بتعاظم القضايا التي تمَّ التغاضي عنها عمدًا قبل دولة التحرر الوطني كمسألة الأقليات ومبادئ المواطنة. برزت ظاهرة الإحياء الهوياتي، وتحديدًا الهويات الصغرى،

234 - المرجع السابق.
235 - بدر الإبراهيم، مرجع سابق.

مـن دينيـة ومذهبيـة وإثنيـة وجهويـة، عـلى حسـاب الهويـة الوطنيـة الجامعـة. ومـردّ ذلـك، دون شـك، إلى فشـل بنـاء الدولـة الوطنيـة الحديثـة.236 عانـت الأقليـات في المنطقـة العربيـة لعقـودٍ طويلـةٍ الاضطهـاد والتهميـش... وقـد صاحـب ذلك وعـيٌ ذاتيّ متنامٍ لـدى الكثير مـن الجماعـات التـي يمكـن توصيفهـا بالأقليـة في المنطقـة العربيـة.. وقـد بـدأت تطالـب بالاعـتراف بهويتهـا وحقوقهـا، لكـن كانـت الدولـة الشـمولية المسـتبدة في المنطقـة العربيـة قبـل قيـام الثـورات العربيـة تخـشى ضعـف قوتهـا إذا مـا اعترفـت بحقـوق الأقليـات لديهـا.[237]

«منـذ أوائـل السـتينيات شـكّلت المسـألة الكرديـة في العـراق، وفيـما بعـد في سـوريا، تحـولًا نوعيًّـا في النمـط «التاريخـي» التقليـدي لمسـألة الأقليـات في منطقـة الـشرق الأوسـط»،[238] كـما شـهدت فـترة السـبعينيات في مـصر صعـودًا للهويـات الثقافيـة والدينيـة، فارتفعـت أصـوات كل مـن المسـيحيين والنوبيـين للمطالبـة بحقوقهـم الدينيـة والثقافيـة».[239] في الغالـب تتعـرّض مثـل تلـك المبـادرات والخطابـات

236 - إصـلاح وتطويـر «النظـام الإقليمـي العربـي»، معهـد الأصفـري للمجتمـع المدنـي والمواطنـة»، ص14.

237 - محمـد العجاتـي، المواطنـة والمكونـات الاجتماعيـة فـي الوطـن العربـي عقـب الثـورات العربيـة.. اسـتكمال البنيـة أم تغييـر فـي المسـار؟ ورقـة ضمـن كتـاب «المواطنـة والمكونـات الاجتماعيـة فـي المنطقـة العربيـة، ص38.

238 - رسـتم محمـود، مسـتقبل المواطنـة والمسـألة الكرديـة، ورقـة ضمـن كتـاب «المواطنـة والمكونـات الاجتماعيـة فـي المنطقـة العربيـة، ص233.

239 - جـورج فهمـي، أزمـة المواطنـة فـي مصـر: لمـاذا فشـلت الحـركات الشـبابية للمطالبـة بدولـة المواطنـة؟ حالـة اتحـاد شـباب ماسـبيرو واتحـاد شـباب النوبـة الديمقراطـي، ورقـة ضمـن كتـاب «المواطنـة والمكونـات الاجتماعيـة فـي المنطقـة العربيـة، ص67.

للقمع في ظل الأنظمة العربية المحافظة والتي تستخدم خطابًا طائفيًا.[240]

في الدول التي يتواجد بها الأمازيغ، على سبيل المثال، كانت السمة الأساسية المشتركة تهميش حقوقهم وتغييبهم سياسيًّا ومؤسّساتيًّا عن أي دور في مجالات صناعة القرار العمومي.[241] إلا أن هذه الهويات بدأت قبل الحراك بالصعود على الساحة كبديل للهوية العربية وليس كمكوّن لها كما كان من قبل فكان إنشاء الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي بالرباط عام 1967 كأول جمعية أمازيغية في المغرب مؤشرًا على انطلاق حركية داخل المجتمع المغربي للمطالبة بالحقوق الثقافية واللغوية الأمازيغية، على الرغم من أن الأمر اقتصر في تلك الفترة على الدفاع عن الثقافة والفنون الشعبية. فيما بعد، ارتبطت المنظمات والجمعيات التي تم إنشاؤها في حقبة السبعينيات والثمانينيات بتطور خطاب مطلبي مباشر.[242]

كما حدث انشطار ثنائي واضح في الحياة السوسيو- اجتماعية السودانية شكّل مرحلة تحول هامة في تاريخها الحديث، ما بين

240 - المنطقة العربية بين التغيرات الداخلية والسياق العالمي، مرجع سابق.
241 - يوسف لعرج، المواطنة والتنوع الثقافي «الأمازيغ في شمال إفريقيا» دراسة حالة عن المملكة المغربية، ورقة ضمن كتاب «المواطنة والمكوّنات الاجتماعية في المنطقة العربية»، ص249.
242 - المرجع السابق، ص 250، 251.

العـروبي/ الإسـلاموي (يمينـي، اسـتهدف أسـلمة الحيـاة العامـة، مدعومًـا ومؤيـدًا مـن مجموعـات الإسـلام السـياسي وخاصـة وسـط شـباب الحركـة الإسـلامية والطـرق الصوفيـة كمدخـل مقبـول لـدى التيـارات الشـعبوية) الإفريقي/المسـيحي/اللاديني (يسـاري وهـو مـشروع مُضـاد للإسـلاموعروبي يلتـف حولـه عـد كبـير مـن الشـباب المُعـارض، يرفـض التصنيفـات الإثنيـة والقبليـة، كـما يرفـض إقحـام الديـن في المسـألة السـودانية داعـمًا بشـدة الدولـة العلمانيـة). بنـاء عـلى مـا تقـدم، يمكن القـول، إن تأثـير هـذا الحـراك عـلى الحيـاة الاجتماعيـة السـودانية كبـيرٌ ويمثّـل ضربـة البدايـة في اسـترجاع صبغـة الثقافـة السـودانية الأصليـة إلى المجـال العـام.[243]

6) نمط اقتصادي نيوليبرالي وتراجع دور الدولة

مـع تراجـع دور دولـة مـا بعـد بعـد التحـرر الوطنـي في المنطقـة، جـاء الحـراك نتيجـة سـيادة نمـط اقتصـادي ريعـي نيوليـبرالي، فـ«الانتفاضـات الشـعبية نبّهـت إلى العلاقـة الحميمـة بـين اقتصاديـات النيوليبراليـة وبـين مشـكلات البطالـة والفقـر والغـلاء والفسـاد، عـدا كشـفها التـلازم بـين هـذه الاقتصاديـات والأنظمـة الاسـتبدادية»،[244] وهـي «ردّ عـلى مـأزق أنظمـة الاسـتبداد العربيـة

243 - عزة مصطفى، خطابٌ قديمٌ لم يمت، وجديدٌ في طور التخلّق، دراسة حالة عن «التغيرات الدولية وتأثيرها على المنطقة العربية». https://bit.ly/2lMtvKq

244 - لكل فصول التغيير، العدد الأول، مجلة «بدايات»، شتاء/ ربيع 2012،

كلهـا، ملكيـة سـلالية أو جمهوريـة، لأن شرعيتهـا الخارجيـة مهتـزة وشرعيتهـا الداخليـة مفقـودة. لم تعـد تؤمّـن لجمهورهـا الحـد الأدنى مـن الخدمـات وأنمـاط التوزيـع الاجتماعـي التـي كانـت تؤمّنهـا سـابقًا».[245] و«التشـابه كبـير بـين مجمـل النظـم العربيـة.. فقـد باتـت نظـمًا بوليسـية، وتتحكـم قلـة سـلطوية في مجمـل الـثروة، وتنشـط في العقـارات والخدمـات وكل مـا يـدرّ ربحًـا ريعيًّـا، ولهـا طابـع عائـلي».[246]

اشـتركت الثـورة التونسـية، عـلى سـبيل المثـال، «مـع غيرهـا مـن الانتفاضـات الشـعبية التـي شـهدها العـالم خـلال العقديـن الماضيـين في العديـد مـن السـمات. كانـت كل هـذه التحـركات في دول مـا يسـمى بالعـالم الثالـث، وكانـت في جميـع الحـالات رد فعـل عـلى السياسـات الاقتصاديـة النيوليبراليـة التـي أفقـرت قطاعـات جماهيريـة واسـعة»،[247] وكذلـك الأمـر في سـوريا التـي أصبـح تركّـز الـثّروات فيهـا هـو الأكـثر تفاوتًـا عـلى الإطـلاق منـذ مرحلـة الجمهوريـة العربيـة المتحـدة، مـع سـيطرة خمسـة في المئـة مـن السـكان عـلى خمسـين في المئـة مـن

---

https://www.bidayatmag.com/node/193

245 - فـواز طرابلسـي، مقابلـة شـاملة مـع فـواز طرابلسـي عـن الثـورة والحـرب فـي سـوريا، بدايـات، العـدد الخامـس 2013، https://www.bidayatmag.com/node/349

246 - سـلامة كيلـة، الثـورة السـورية، واقعهـا، صيرورتهـا وآفاقهـا، أطلـس للنشـر والإنتـاج الثقافـي، طبعـة أولـى 2013، ص15.

247 - وائـل جمـال، انتفاضـة الياسـمين التونسـية.. الخالـق الناطـق هنـاك.. الخالـق الناطـق هنـا، 18/1/2011، https://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?cdate=18012011&id=19842774-92a2-4165-81b6-f5cf7b5adb64

الـثروات»[248] فـ«عهـد بشـار الأسـد عهـد إعـادة الهيكلـة النيوليبراليـة وتفكيـك رأسـمالية الدولـة (عهـد أبيـه) وتقديـم تنـازلات أساسـية في تركيـب الاقتصـاد السـوري بنـاءً عـلى توجيهـات صنـدوق النقـد الـدولي»،[249] لذلـك شـهدت سـوريا «تدهـورًا أكـبر في بنيـة الاقتصـاد الـذي شـحّت السـيولة فيـه بعـد أن تمركـزت بأيـدي رجـال الأعـمال الجـدد»،[250] وبالتـالي فـإن «الانتفاضـة... هـي مطالـب الطبقـات الاجتماعيـة التـي تشـارك فيهـا، خصوصًـا الشـباب المُفقـر الـذي هـو محورهـا».[251]

إلا أن القادمـين للسـلطة أو الباقـين فيهـا بعـد الحـراك، وأمـام إشـكالية الصـدام بـين «الديمغرافيـا المتزايـدة والتنميـة غـير المتوازنة»،[252] ولارتبـاط مصالحهـم بالنظـام الـدولي أو لقصـور النظـر وقلـة الخـبرة، لم يحاولـوا كـسر هـذه الدائـرة فـنرى في مـصر فيـما يتعلّـق بالموقـف مـن قـروض صنـدوق النقـد الـدولي، توافقًـا بـين اليمـين الدينـي واليمـين السـلطوي، فقـد سـعت حكومـة محمـد مـرسي المنتمـي إلى الإخـوان المسـلمين منـذ توليـه السـلطة في منتصـف حزيـران/ يونيـو 2012

248 - ياسر منيف، عمر، ضاحي، النيوليبرالية والاستبداد في سورية، العدد الأول، مجلـة «بدايـات»، شـتاء/ ربيـع 2012، النيوليبراليـة والاسـتبداد فـي سـوريا، https:// www.bidayatmag.com/node/258

249 - فواز طرابلسي، مقابلة شاملة، مرجع سابق.

250 - كيلة سلامة، مرجع سابق، ص18.

251 - المرجع السابق، ص20، 21.

252 - إصـلاح وتطويـر «النظـام الإقليمـي العربـي»، معهـد الأصفـري للمجتمـع المدنـي والمواطنـة»، ص14.

للاقتراض من صندوق النقد،[253] وهو ما قام به اليمين السلطوي بعد 30 حزيران/ يونيو، فمنذ تشرين الثاني/ نوفمبر 2016، بدأ النظام المصري باتخاذ قرارات اقتصادية مصيرية وكانت هذه القرارات ضمن برنامج «الإصلاح الاقتصادي»، الذي بدأت الحكومة في إطار اتفاقها مع صندوق النقد الدولي على قرض بقيمة 12 مليار دولار.[254]

مع ازدهار الأدبيات النيوليبرالية المطالبة بتحرير الاقتصاد والخصخصة، واختلاطها في البلدان العربية بأطاريح تقلل من شأن الزراعة والصناعة مرة لحساب اقتصاد الخدمات ومرة بدعوى «اقتصاد المعرفة»، ظهر «يمين اقتصادي جديد» في البلدان العربية، يتعامل مع الأوضاع القائمة في هذه البلدان كما لو أن مشكلاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي بسبب اعتمادها أنماطًا من «الاشتراكية».[255] شكّل التشكيّ من العرقلة البيروقراطية للأعمال ومن تباطؤ الخصخصة بعضًا من عدة هذا اليمين الاقتصادي العربي الجديد الذي بخلاف اليمين العربي في فترة الحرب الباردة لم تعد المحورَ الحماسيَّ لخطابه «معاداةُ الشيوعية» بل معاداة «القطاع

253 - صندوق النقد يتفق مع مصر على قرض 12 مليار دولار ويدعو شركاءها للمساعدة، رويترز العربية، 11/8/2016، http://bit.ly/2IKL06X

254 - عثمان الشرنوبي، محللون: موجة جديدة من ارتفاع الأسعار خلال الشهور المقبلة، 12/7/2017، https://goo.gl/Dju66h

255 - وسام سعادة، مرجع سابق.

العـام»، في الوقـت نفسـه الـذي حـرص فيـه هـذا اليمـين الجديـد عـلى تسـخير أجهـزة الدولـة لحسـابه، ولصالـح مصالـح أربابـه.[256]

ومـع وصـول اليمـين الشـعبوي إلى الحكـم في مناطـق عديـدة، فـإن موقفـه مـن الحقـوق الاقتصاديـة والاجتماعيـة لا يختلـف عـن موقفـه مـن الحقـوق السياسـية، فالنظـام لـه هـدف أسـاسي هـو اسـتعادة قـوة وهيبـة الدولـة. ونجـد مظاهـر ذلـك في السياسـات الاقتصاديـة والقـرارات الاقتصاديـة التـي كانـت لهـا تبعاتهـا السـلبية عـلى أوضـاع المواطنـين.[257]

7) القضية الفلسطينية: تباين بين الرسمي والشعبي

مـن أهـم ملامـح النظـام الجديـد عـدم وضـوح العـدو بشـكل دقيـق كـما كان في السـابق. عـلى سـبيل المثـال، طرحـت حملـة «بدنـا نحاسـب» اللبنانيـة، وهـي مجموعـة يديرهـا شـباب يسـاريون، موضـوع إدخـال بنـد المقاومـة والعـداء لإسرائيـل عـلى الورقة السياسـية للتحالـف الـذي يضـم قيـادات الحـراك لانتخابـات 2018 اللبنانيـة لكـن أطرافًـا مـن قـوى الحـراك رفضـت إدراج هـذا البنـد،[258] وقـد أدى هـذا الخلاف إلى انقسام الحراك إلى قسمين.[259]

256 - المرجع السابق.

257 - شيماء الشرقاوي، مرجع سابق.

258 - مقابلـة مـع علـي حمـود ومحمـد حطيـط، أعضـاء فـي اللجنـة السياسـية للحركـة الشـبابية للتغييـر، 5 تمـوز/ يوليـو 2018، بيـروت، لبنـان.

259 - عبـاس عاصـي، مشـروع المنطقـة العربيـة بيـن التحـولات الإقليميـة والسـياق الدولـي، صعـود الخطـاب البديـل: حالـة لبنـان، ضمـن سلسـلة دراسـة حالـة عـن «التغيـرات

لقـد تشـكّلت هـذه الحالـة نتيجـة عمـل جـاد عـلى اسـتبدال بالـصراع العـربي - الإسرائيـلي صراعًـا سـنيًّا – شـيعيًّا. وفي إطـاره، أعلنـت السـعودية في كانـون الأول/ ديسـمبر 2015 تحالفًـا إسـلاميًّا دوليًّـا مـن 41 دولـة بقيادتهـا يهـدف إلى محاربـة الإرهـاب بجميـع أشـكاله ومظاهـره أيًّـا كان مذهبـه وتسـميته، وهـو التحالـف الـذي بـدا غـير فعـال في مواجهـة داعـش لكنـه مهـد لتحالفـات أخـرى كالتحالـف العـربي في اليمـن ثـم محـاولات خلـق ناتـو عـربي ضـد إيـران وبحضـور إسرائيـل.[260]

إلا أن ذلـك ليـس حكـمًا مطلقًـا، فعـلى مسـتوى آخـر نشـهد عـودة القضيـة الفلسـطينية مـرة أخـرى إلى الواجهـة بعـد مرحلـة خفـوت، والتـي تجسّـدت في الخطـاب الـذي اسـتخدمه الفاعلـون السياسـيون الجـدد في المنطقـة والمتمثّـل بالأسـاس في التضامـن مـع غـزة ضـد الضربـات الإسرائيليـة. يقـاوم هـذا النـوعُ مـن الأنشـطة السياسـية (political activism) التطبيـعَ الـذي تحـاول الأنظمـة الحاليـة تمريـره شـعبيًّا مـن أجـل الحصـول عـلى الشرعيـة أو الاعـتراف السـياسي مـن قبـل القـوى العالميـة بهـا.[261]

الدوليـة وتأثيرهـا علـى المنطقـة العربيـة»، https://bit.ly/2kje9ww

260 - عمر سمير خلف، مرجع سابق.

261 - «المنطقة العربية بين التغيرات الداخلية والسياق العالمي، مرجع سابق.

ثالثًا: أبعاد جديدة لنظام قديم

أدّى هـذا السـياق ومـا ولّـده مـن ملامـح في المنطقـة العربيـة إلى ظهـور قضايـا جديـدة عـلى السـاحة أو انفجـار صراعـات تاريخيـة قـادت المنطقـة إلى مجموعـة مـن النزاعـات المسـلحة المتزامنـة التـي لم تشـهدها مـن قبـل فنتجـت النسـخ العربيـة مـن اليمـين المتطـرّف بالأسـاس مـن التجـارب المتكـرّرة في عـددٍ مـن الـدول التـي سـقطت فيهـا الدولـة مـع توسّـع الجماعـات الإرهابيـة والفـوضى، والتـي حلّـت كـما في سـوريا والعـراق وليبيـا واليمـن محـلّ الدولـة. مهّـدت تلـك الحالـة الطريـق إلى الخطـاب الوطنـي الـذي يـرى في» الحـرب عـلى الإرهـاب» أولويـة قصـوى ويتغافـل عـن الإصـلاح المؤسـسي في هيـاكل تلـك الـدول،[262] الأمـر الـذي أدى إلى تغيـير قطاعـات شـعبية واسـعة أولوياتهـا مـن دعـم مطالـب العدالـة الاجتماعيـة والديمقراطيـة إلى القبـول بخطابـات اليمـين واليمـين الشـعبوي التـي ترفـع شـعارات الأمـن وضرورة التماهـي المجتمعـي.[263]

تضافـرت أربعـة عوامـل بشـكل خـاص عـلى تصعيـد الصراعـات وإدامتهـا. الأول هـو أنّ تـوازن القـوى الإقليميـة بـدأ يشـوبه الغمـوض والتقلّـب في أعقـاب انتفاضـات العـام 2011 وبفعـل الغـزو الأمـيركي للعـراق. العامـل الثـاني هـو أن النزاعـات المحليـة أصبحـت المـسرح

262 - المرجع السابق.
263 - جورج فهمي، مرجع سابق.

الـذي تـدور عليـه المنافسـات الإقليميـة المتواصلـة عـلى هيئـة صراعـات أوسـع نطاقًـا وأشـدّ فتـكًا. أمـا الثالـث فتعاظـم توريـد السـلاح إلى المنطقـة بصـورة حـادة، وهـي صفقـات تتنافـس فيهـا الولايـات المتحدة وحلفاؤهـا الأوروبيـون بصـورة نشـطة. والعامـل الرابـع معانـاة الـشرق الأوسـط مـن شـحٍّ ملمـوس في معايـير الحـرب وآليـات فـضّ النـزاع، بالمقارنـة مـع مناطـق العـالم الأخـرى. وكان مـن نتائـج ذلـك أن تحوّلـت المنطقـة بجميـع بقاعهـا إلى وكـر دبابـير مـن التدخّـلات العسـكرية.[264]

قادتنـا هـذه النزاعـات إلى موجـة لجـوء ونـزوح واسـعة في المنطقـة، فـالأضرار التـي خلّفتهـا الحـروب الأهليـة في سـوريا واليمـن وليبيـا والعـراق منـذ العـام 2011 صاعقـة. ولعـل مـا يقـارب 600 ألـف شـخص لقـوا حتفهـم، مـن بينهـم عـلى الأرجـح أكـثر من نصـف مليـون سـوري، و17 مليـون شـخص نزحوا مـن ديارهـم. ومـن الأردن إلى تونـس ومـا بعدهـا، أدّت تدفقـات اللاجئـين إلى اسـتنزاف الميزانيـات وتسـببت في تأجيـج السياسـات المحليـة.265 ويتعـرّض معظـم هـؤلاء لحمـلات عنصريـة ممنهجـة في أكـثر مـن دولـة في المنطقـة، وكذلـك في أوروبـا عـبر الحـركات الشـعبوية، فعـلى الرغـم مـن تركيـز إيطاليـا عـلى سـبيل المثـال عـلى أمـور تتعلّـق بالمناطق الشـمالية، فـإن رابطة الشـمال تبنّـت خطابًـا عامًّـا معاديًـا للأجانـب ومعاديًـا للإسـلام منـذ النصـف

264 - بيري كاماك، ميشيل دنّ، إشعال الصراعات في الشرق الأوسط، مرجع سابق.

265 - كامـاك بيـري، يسـلّط الأدب المتخصّـص الضـوء عـلى سـبب تفشـي النزاعـات، واسـتمرارها لفتـرات أطـول، ولا سـيما فـي الشـرق الأوسـط، مركـز كارنيغـي للشـرق الأوسـط، 15/12/2017، https://carnegie-mec.org/diwan/75031

الثاني من تسعينيات القرن الماضي،[266] و«السيادة» تعني بالنسبة إلى اليمين الجديد السعي إلى تطبيق سياسة الحدود المغلقة وفرض المزيد من القيود على الهجرة.[267]

وقد امتدّت الحملات العنصريّة للعمالة، فاليمين في دول الخليج لا يختلف كثيرًا عن اليمين الأوروبي في التعامل مع قضية المهاجرين واللاجئين بل يضيف إليها يمينية أكثر رجعية فيما يتعلق بالعمالة المهاجرة. إن السياسة السعودية الجديدة تميل إلى تحميل الوافدين جزءًا من أسباب الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها المملكة، ومن ثم جاءت سياسات أكثر تشددًا تجاه الوافدين بفرض رسوم إقامة شهرية عالية على عائلات الوافدين.[268]

أما قضايا الهجرة واللاجئين خارج المنطقة، خصوصًا تلك المتعلّقة ببلدان إسلامية والمرتبطة بشكلٍ أكبر عند أنصار ومرجعيات اليمين المتطرف في أوروبا وأميركا بتصاعد العنف والإرهاب، فلا تطرح نفسها بحدّة ولا تشكّل أولويّةً في أدبيات اليمين المتطرّف في البرازيل وباقي بلدان أميركا الجنوبية. ويعود ذلك إلى البعد الجغرافي عن مناطق النزاع المفجّر لمثل هذه الأزمات وبقاء هذه البلدان في أمان من مخاطر العمليات الارهابية.[269]

266 - جينارو جيرفازيو، مرجع سابق.

267-https://www.enfgroup-ep.eu/global-compact-for-immigration-bad-for-europe/

268 - عمر سمير خلف، مرجع سابق.

269 - عبد الصادق توفيق، مرجع سابق.

في المقابل، يمكن اعتبار تجربة سيريزا في اليونان ثم ارتقاء جيرمي كوربن إلى قمة حزب العمال البريطاني، ثم حركات «أنا أيضًا» و«الحيوات السوداء تهم» وحركات التضامن مع المهاجرين وإضرابات المدرسين وغيرها من الحركات الاجتماعية التي انضوت سياسيًّا في حملة ساندرز ثم في جناح «اشتراكيو أمريكا الديمقراطيون» داخل الحزب الديمقراطي، ثم السترات الصفراء في فرنسا، والانتفاضة في السودان.. امتدادًا إلى موجة المقاومة ضد النيوليبرالية، والجبهة الأولى لمقاومة تحولات مشروعها السلطوية الشعبوية. يجمع بين كل هذه التجارب السياسية والتنظيمية في لحظات صعودها (سيريزا وبوديموس وكوربن وساندرز) أنها تنطلق من برامج مضادة للتقشف والتمايز الطبقي والسياسات الاقتصادية النيوليبرالية.. وبالرغم من أن الجوانب الاقتصادية كانت محورية في برامج وخطاب كل برامج هذه التيارات، فإنها لم تكن اقتصادوية بأي معنى، وإنما دائمًا ما كان الخطاب واضحًا في تسييسه، ومما يجمع بين كل هذه التيارات أيضًا الصلة العضوية المباشرة بينها وبين الحركة القاعدية في الشارع، وتتباين هذه التجارب في مساراتها التنظيمية.[270]

270 - نصاف براهمي، مرجع سابق.

على الرغم من وجود تطور نوعي في طبيعة القضايا التي تواجه المنطقة، نجدنا ما زلنا نتعامل معها بالذهنية ذاتها، المبنية على قواعد وسياق يكادان أن يكونا هما والعدم سواء، في ظل التطورات والملامح التي تناولناها في هذه الورقة «استولت اتفاقية سايكس - پيكو وخريطتها (ومعها تعهد مكاماهون وإعلان بلفور) على مداركنا عن تلك الفترة التأسيسية للمشرق العربي. صارت سايكس - پيكو الجريمة التأسيسية، والمشهد الأول، والخطيئة الأصلية.. والخريطة التي خرطت المنطقة أشلاء، طالما أن لها وظيفة وحيدة لا تني تتكرّر تقسيم المنطقة وتقسيم تقسيمها في انتهاك مستمر لوحدتها المقدسة».[271] «مشاريع تقسيم التقسيم أشهرها المنسوب إلى الغزو الأميركي للعراق العام 2003. شاع تفسير لهدف غزو العراق على أنه تقسيم بلاد الرافدين والسيطرة على نفطها. قد يخطر في البال السؤال الساذج: لماذا تلجأ قوة غازية إلى تقسيم بلاد إذا كانت قادرة على السيطرة عليها كاملة؟»272 فالتأييد أو المعارضة في أمور الوحدة والحفاظ على الوضع الراهن كانا ولا يزالان منوطين بمقدار خدمة أو عدم خدمة المصالح الغربية الاقتصادية منها والسياسية والإستراتيجية.[273]

271 - فواز طرابلسي، مئة عام على اتفاقية سايكس- بيكو، مرجع سابق.
272 - المرجع السابق.
273 - المرجع السابق.

أمـا في قضيـة الأقليـات والحريـات فتـمَّ اللجـوء إلى حمـلات التشـويه التقليديـة مـن خـلال حملـة إعلاميـة تسـتخدم الاتهامـات نفسـها والادعـاءات ضـد النشـطاء ومنظـمات المجتمـع المـدني، وأحيانًـا مـع إضافـة مسـحة التيـار الإسـلامي المتمثلـة في اتهامـات ذات بعـد أخلاقـي، ففـي مـصر خـلال حكـم فـترة الإخـوان خرجـت المنابـر الإعلاميـة للإسـلاميين للحديـث حـول أن منظـمات المجتمـع المـدني تنـشر الأفـكار غـير الأخلاقيـة التـي تتنـافى مـع الديـن.[274] فـما زال القائمـون عـلى السـلطة يعتقـدون أن الإعـلام يمكـن أن يكـون منصـة تعكـس مـا تريـده الحكومـة وتحجـب مـا تريـد حجبـه،[275] وهـو مـا يثبـت يومًـا بعـد يـوم أنـه غـير ممكـن في ظـل التطـور التكنولوجـي.

عـلى المسـتوى الاقتصـادي والاجتماعـي تواجـه شـعبويات اليمـين العـربي تداعيـات أزمـة الرأسـمالية العالميـة مـن موقـع أسـوأ. «ففشـل النيوليبراليـة هـو ليـس فقـط في عـدم تلبيـة تطلعـات القاعـدة الأوسـع مـن النـاس، بـل وفي التعامـل مـع القضايـا الكـبرى الملحـة وعـلى رأسـها النشـاط الاقتصـادي وتراكـم رأس المـال، ناهينـا عـن قضايـا التفـاوت وانعـدام الثقـة، يعنـي أنهـا تدفـع في طـرق المزيـد مـن عـدم الاسـتقرار وأشـكال جديـدة مـن السـلطوية، وبمـا أن هـذه الأشـكال السياسـية السـلطوية هـي الأخـرى لا يمكنهـا تأمـين الاسـتقرار، فإنهـا توفـر

274 - الإخـوان المسـلمون: وثيقـة الأمـم المتحـدة بشـأن المـرأة «تتصـادم مـع مبـادئ الإسـلام"، مـارس 2013، https://arbne.ws/2RxA8vU

275 - عزة مصطفى، مرجع سابق.

مسـارًا محتمـلًا لظهـور أشـكال جديـدة مـن الفاشـية».[276] هـذه طريـق مسـدودة مـا لم تبـزغ مقاومـة قـادرة عـلى الاسـتفادة مـن دروس 2011 ومـن تجـارب مشـاريع المقاومـة العالميـة ونجاحاتهـا وإخفاقاتهـا، وتشـارك بفعاليـة في الحـوار حـول معضـلات تطورهـا.[277]

أمـا بنيـة الدولـة العربيـة المفرطـة في مركزيتهـا والإصرار السـلطوي عـلى ذلـك فلـن يـؤدي إلا إلى انتفاضـات في مواقـع مختلفـة قـد تتحـول إلى نزاعـات مسـلحة كـما حـدث في عسـكرة الثـورات الشـعبية، كليبيـا وسـوريا واليمـن، وسـتكون في حاجـة إلى تغيـيرات جذريـة قـد تتطلّـب السـماح لمناطـق ومجتمعـات محليـة بحيّـز حريـة أكـبر لإدارة شـؤونها بنفسـها، وتوفـير حمايـة ماديـة للأقليـات فيهـا.[278]

276 - Marco Boffo and Alfredo Saad-Filho, ibid.

277 - وائـل جمـال، فسـاد بـلا فلـول، بوابـة جريـدة الشـروق، 18/2/2013، http://bit.ly/2X1Pfi7

278 - -Perry Cammack, Marwan muasher, Arab fractures: citizens, state and social contracts، Carnegie Endowment for international peace, 2017, https://bit.ly/2kV8efW.

الخاتمة:

أدّت الانتفاضات في الواقع إلى قيام نظام عربي جديد، لكن ليس النظام الذي توقعه الأفراد. على الرغم من أن الانتفاضات العربية لم تسفر عن ديموقراطيات جديدة ناجحة، فإنها أعادت تشكيل العلاقات الإقليمية، فالقوى العظمى التقليدية، مصر والعراق وسوريا، هي الآن بالكاد دول وظيفية. في حين أن البلدان الخليجية الغنية والقمعية، قطر والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، مزدهرة،[279] وهو ما قاد في رأي الكاتب إلى الفوضى الإقليمية السائدة والتي أدت إلى ثلاثة أنواع من الحروب التي يغذّي بعضُها البعض الآخر وهي حرب باردة عربية إيرانية، وحروب بالوكالة في نقاط النزاع المشتعلة، وحروب أهلية، وقد تركت هذه الفوضى آثارًا سلبيّة خطرة على النظام الإقليمي العربي ومؤسساته.[280]

279 - Lynch, Marc, The New Arab Order, Power and Violence in Today's Middle East, Foreign Affairs, September, October, 2018, https://www.foreignaffairs.com/articles/middle-east/2018-08-13/new-arab-order

يمكنكم الاطّلاع على ترجمة سحقي سمير العربيّة للمقالة عبر الرابط الآتي https:// /idraksy.net/new-arab-order

280 - إصلاح وتطوير «النظام الإقليمي العربي»، معهد الأصفري للمجتمع المدني والمواطنة»، ص14.

يدعـو هـذا الأمـر في المرحلـة المقبلـة إلى منظومـة جديـدة إلى المنطقـة تقـوم عـلى التعامـل مـع القضايـا الراهنـة برؤيـة مغايـرة للـرؤى التقليديـة للنظـام العـربي السـابق، واسـتخدام إسـتراتيجيات قـادرة بجـوار حـل الأزمـات الراهنـة عـلى تفـادي فجـوات النظـام القديـم وعـدم الوقـوع في إشـكالياته نفسـها ولعـل أولهـا مفهـوم المواطنـة الشـاملة بحيـث تصبـح الهويـة العربيـة هويـة جامعـة فـلا نقـص في فـخ الاختـزال بجانبيـه الجانـب الأول الـذي يسـتخدم العروبـة بشـكل عنـصري والجانـب الآخـر نجـدد رؤيـة قـاصرة مـن الاختـزال في بعـض الأحيـان لـدى مجموعـات بعينهـا لمفهـوم المواطنـة كعمليـة يقصـد بهـا تمكـين الأقليـات ذات الأبعـاد الثقافيـة».[281] وتُعتـبر المواطنـة الكاملـة بـين جميـع مكونـات المجتمـع والمسـاواة في القانـون وأمامـه عنـاصر أساسـية لتشـكل هويـة جديـدة للمنطقـة تحتمـل التعـدد والتبايـن وتكـون مركبـة لا إقصائيـة، بـل إن هويـة للمنطقـة العربيـة ككل أقـدر عـلى تحقيـق ذلـك مـن الهويـات القطريـة، ولعـل نموذجـه الأوضـح شـبكات التضامـن الشـبابية التـي نشـأت في ظـل الحـراكات العربيـة وكيـف يمكـن لهـا أن تمثّـل نقلـة جديـدة لمفهـوم العروبـة بعيـدًا عـن الكليشـيهات القوميـة التقليديـة، لـذا يجـب أن تأخـذ هـذه الشـبكات موقعهـا في تشـكيل ملامـح النظـام الجديـد.

281 - محمـد العجاتـي، المواطنـة والمكونـات الاجتماعيـة فـي الوطـن العربـي عقـب الثـورات العربيـة.. اسـتكمال البنيـة أم تغييـر فـي المسـار؟ ورقـة ضمـن كتـاب «المواطنـة والمكونـات الاجتماعيـة فـي المنطقـة العربيـة، ص33.

إن منظومة مواطنة حداثية ديمقراطية قادرةٌ على إعادة التوازن الإقليمي وعكس القدرات الخاصة بدوله المختلفة بقدر مساهمتها في بناء هذا النظام. كما أن مفهوم المواطنة في بعده الاقتصادي والاجتماعي قادر على توقيف عجلة النمط الاقتصادي الحالي وعليه إعادة الاعتبار إلى قيم أخرى توارت خلف المنظومة النيوليبرالية.

وفي هذا الإطار يجب الخروج من أثر فكرة سايكس بيكو لإعادة ترتيب المنطقة، الأمر الذي يتطلّب رؤية جديدة للمفاهيم القديمة التي تحوّلت إلى مسمّيات، مثل الإمبريالية والمقاومة فهي ليس مسميات أخرى لأطراف أو دول إنما هي أفعال ينطبق المسمى على ما تقوم به. فالدور الصيني والروسي في المنطقة هو بعينه الإمبريالية، والمقاومة هي مواجهة العدو والظلم والقهر وليست مسمى لحزب أو مجموعة، وهو ما يتطلب إعادة القضية الفلسطينية إلى موقع الصدارة من جديد لكن بطرح إنساني جديد يتطلب بالضرورة عدم الانجرار خلف التيارات الدينية في الخلط بين الصهيونية واليهود، فهذا الخطاب يصب في النهاية لصالح فكرة الحق التاريخي الذي يدّعيه اليهود في أرض فلسطين وعلينا التأكيد على أن القضية بالأساس قضية حقوق الفلسطينيين. كما أن هذا النظام يجب أن يستفيد من الخطاب البديل في العالم الذي يصبّ في صالح قضايانا ويفتح الأفق لعمل دبلوماسي لا يقع أسيرًا

للنظـم القائمـة في العـالم إنمـا يفتـح جسـورًا مـع الشـعوب والمجتمعـات المختلفـة، الأمـر الـذي يتيـح لـه أوراق ضغـط في التفاعـل مـع النظـام العالمـي.

كل ذلـك يتطلّـب منظمـة إقليميـة قـادرة عـلى القيـام بهـذا الدور، وإذا كانـت هـذه المنظمـة هـي الجامعـة العربيـة فـلا بـد من أن تشـهد الأخـيرة تطـوّرًا أو تغيـيرًا عـلى ثلاثـة مسـتويات، عـلى مسـتوى البنيـة مـن خـلال تحديـث مؤسسـاتها الفرعيـة لتلائـم القضايـا الراهنـة التـي تشـهدها المنطقـة وتمتلـك قـدرًا مـن الاسـتقلالية التـي تمكّنهـا مـن التعامـل مـع هـذه القضايـا بشـكلٍ تقنـيّ، وتتمكّـن مـن التواصـل والتفاعـل بشـكل أكـبر مـع المجتمـع المـدني. المسـتوى الثـاني مسـتوى الآليـات بحيـث تتمكـن مـن التفاعـل مـع الواقـع بعيـدًا عـن هيمنـة طـرف أو أطـراف عليهـا إنمـا أن يكـون عكسـها للتوازنـات الإقليميـة انعكاسًـا لتوافقـات لا سـيطرة وهيمنـة. أمـا مسـتوى الهيـكل فيجـب أن يمنـح قـدرًا أكـبر مـن الاسـتقلالية وأن يكـون جهـازه الإداري مسـتوعبًا للكفـاءة بعيـدًا عـن المحصصـات، مـا يعنـي جهـازًا إداريًّـا مسـتقلًّا عـن بعثـات الـدول، يحكمـه بالأسـاس قواعـد الحوكمـة. تحتـاج هـذه التغـيرات بالطبـع إلى خطـة تفصيليـة يضعهـا الخـبراء والمفكـرون، وهـي عمليـة يجـب أن تلتفـت إليهـا الجامعـة وتـشرع في القيـام بهـا وأن تسـتعين فيهـا بالأسـاس بخـبرات شـابة قـادرة عـلى طـرح رؤى وأفـكار جديـدة.

المحتويات

مقدمة 5

1 - صعود نجم اليمين في المنطقة العربية وخفوت حق العيش الكريم 9

نادين عبد الله

2 - تأثير الشعبوية على المواطنة، وقضية اللاجئين 55

عبدالله العيّاش

3 - الحوكمة في العالم العربي: كيف تؤثر الشعبوية على فرص التحول الديموقراطي في المنطقة 99

أحمد عبد ربه

4 - النظام العربي في ظل التطورات الإقليمية والدولية تغيرات في البنية والقضايا وجمود في المؤسسات والآليات 137

محمد العجاتي وزينب سرور